مكتبة ياسمين

ميري نورتن

# عالم أرييتي

## المقترضون

ترجمة: بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

«الناس منهم الصالح ومنهم الطالح. منهم الصادق ومنهم الماكر، تتغير طباعهم وفق ما يقتضيه الموقف. ولو كان للحيوانات أن تتكلم لقالت الشيء نفسه. ابتعدي عن دربهم، هذا ما قيل لي دائمًا. مهما وعدوك، فلا أحد أصابه خير من بشوري».

*****

نُشرت رواية «المقترضون» أول مرة عام ١٩٥٢، وفازت بوسام كارنيغي في خمسينيات القرن العشرين، وأتبعتها نورتن بأربعة أجزاء وقصة قصيرة. حُولت الرواية إلى فيلم مرات عديدة، لكن أشهر الاقتباسات هو فيلم الأنمي عالم أرييتي السري، الذي أنتجه استديو غيبلي بإخراج هيروماسا يونيباياشي عام ٢٠١٠. كتبت ميري نورتن حكاية المقترضين، مستوحية إياها من نزهاتها في الريف مع أخويْها في طفولتها، النزهات التي كانت تثير في نفسها الدهشة من كل شيء بقدر ما تثير امتعاض أخويها لأنها تطيل الوقوف والتمعُّن في كل ما تراه. أو ما لا تراه، فقد كانت ميري الصغيرة حسيرةَ النظر، فمنحها ذلك خيالًا متّقدًا جعلها ترى الأشياء على غير حقيقتها! خطرَ لها في واحدة من تلك النزهات أن تتساءل عن طبيعة حياة أناس صغار يسكنون البيوت و«يقترضون» من أصحابها ما يحتاجونه. تقول نورتن في رسالة لصديقٍ قُبيل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٠: «تغيّرَ العالم الذي نعرفه، فعادت إليَّ من الطفولة ذكرى المقترضين. اضطرَّ الناس رجالًا ونساءً وأطفالًا أن يعيشوا بسبب الفقر المدقع المأساوي ضرب الحياة الذي تخيَّلته للناس الصغار. وأدرك المرء - دون أي رمزية مقصودة - أنَّ العالم قد يأتي بأشخاص من أمثال السيدة درايفر ممَّن لا يتردَّدون في أذى الآخرين».

لا يخلو العالم اليومَ - ولم يخلُ في أي زمن - من أمثال السيدة درايفر، لكنه لا يخلو أيضًا من أمثال الولد، الذي سعى إلى مساعدة أرييتي وعائلتها حتى آخر لحظة.

المترجمة telegram @yasmeenbook

ميري نورتن

**عالم أرييتي**

**المقترضون**

مكتبة ياسمين

9 789921 775679

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com

ميري نورتن

مكتبة ياسمين

# عالم أريتي
## المقترضون

رواية

ترجمة
بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

الكاتب: ميري نورتن

عنوان الكتاب: عالم أرييتي: المقترضون

ترجمة: بثينة الإبراهيم

العنوان باللغة الأصلية: The Borrowers

الكاتب: Mary Norton

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-67-9

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

© 1953 by Mary Norton

منشورات تكوين

TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

telegram @yasmeenbook

إلى شارون رودز

# الفصل الأول

مكتبة ياسمين

سمعتُ بهم من السيدة مَي أول مرة. لا، لست أنا. وكيف أكون أنا، وأنا البنت الصغيرة الجامحة الفوضوية العنيدة التي تحملق بعينين غاضبتين ويقال إنها تكز بأسنانها؟ لا بد أنها تُدعى كيت. نعم، هذا اسمها: كيت. وليس الاسم بذي أهمية كبرى على أي حال، فهي لا تكاد تظهر في الحكاية.

عاشت السيدة مَي في غرفتين في منزل أهل كيت في لندن، وأظنها قريبة لهم. كانت غرفة نومها تقع في الطابق الأول، وسميت غرفة جلوسها بـ«غرفة الإفطار» لأنها جزء من البيت. غرف الإفطار جميلة صباحًا عندما تسقط أشعة الشمس على شرائح الخبز والمربى، لكنها تتلاشى قليلًا وقت العصر ويحل محلها ضوء فضي غريب، أي شفقها الخاص، ويشوبها شيء من الحزن، لكنه حزن أحبته كيت الطفلة. فتتسلل إلى السيدة مي قبل وقت الشاي وتعلمها السيدة مي شغل الحياكة.

كانت السيدة مي عجوزًا ومفاصلها متيبسة، وكانت... ليست

بالمتزمتة تمامًا، لكن لديها يقينًا داخليًّا يعوض عن التزمت. لم تكن كيت قط بالحرون مع السيدة مي، ولا بالفوضوية ولا بالعنيدة، وعلمتها السيدة مي أشياء كثيرة إلى جانب شغل الحياكة؛ كأنْ تلفّ خيوط الصوف في كرة لها شكل البيضة، وأن تخيط لفقة الكفّة وترتق الثياب، وأن ترتب جارورًا وتلقي على محتوياته طبقة رقيقة من نسيج محفحف يحميه من الغبار، كأنها تباركه.

سألت السيدة مَي ذات يوم، أثناء جلوس كيت محدودبة وخاملة على المسند: «لمَ أنت شديدة الهدوء يا صغيرتي؟ ما خطبك؟ هل أضعتِ لسانك؟»

قالت كيت وهي تشدّ أسفل حذائها: «لا، بل أضعت صنارة النسيج...» (كانتا تصنعان لحافًا بمربعات من الصوف، وما زالتا في حاجة إلى ثلاثين منها)، وواصلت كلامها على عجل «أعرف أين وضعته، وضعته على الرف السفلي من خزانة الكتب المجاورة لسريري».

رددت السيدة مَي، وصنارتها تنقر بلا كلل على ضوء النار «على الرف السفلي؟ قريبًا من الأرض؟»

قالت كيت «نعم. لكني بحثت على الأرض وتحت البساط وفي كل مكان. ما زال خيط الصوف معلقًا فيها، مثلما تركته».

قالت السيدة مَي بهدوء «أوه يا ربي. لا تقولي إنهم في هذا البيت أيضًا!»

سألتها كيت «ومن هم؟»

قالت السيدة مي وابتسمت في شبه الضوء «المقترضون».

نظرت إليها كيت بشيء من الخوف ثم سألت «وهل هذه الأمور حقيقية؟»

«أي أمور؟»

طرفت كيت «ناس، ناس آخرون يسكنون بيتًا و... يقترضون الأشياء؟»

وضعت السيدة مَي نسيجها أرضًا وسألت «ما رأيك؟»

قالت كيت وهي تشيح بوجهها وتشد زر الحذاء بقوة «لا أدري. هذا غير ممكن. ولكن...»، -رفعت رأسها- «يخطر لي أحيانًا أنه ممكن بلا شك».

«ولماذا يخطر لك ذلك؟»

«بسبب اختفاء الأشياء، كالمشابك مثلًا. تستمر المصانع في صنع المشابك، ويشتري الناس المشابك كل يوم، ولكن المرء لا يجد واحدًا منها وقت الحاجة. أين هي؟ الآن، في هذه اللحظة؟ أين تذهب؟ وانظري إلى الإبر»، تابعت كيت كلامها. «كل الإبر التي اشترتها أمي يومًا -لا بد أنها مئات- لا يعقل أنها متناثرة في أرجاء هذا البيت».

وافقتها السيدة مي «كلا، ليست متناثرة في أنحاء البيت».

«وكل الأشياء الأخرى التي لا ننفك نشتريها. المرة تلو المرة تلو

المرة، كأقلام الرصاص وأعواد الثقاب والأختام الشمعية ودبابيس الشعر ودبابيس الحائط والكشتبانات...»

«ودبابيس القبعات، والورق النشاف».

«نعم، الورق النشاف، ولكن ليس دبابيس القبعات».

قالت السيدة مَي، ورفعت أشغال الإبرة ثانية «أنت مخطئة في هذا. اختفاء دبابيس القبعات له سبب».

فنظرت كيت، ورددت «سبب؟ وما السبب؟»

ضحكت السيدة مَي فجأة وقالت في شيء من التردد «بل سببان، فدبوس القبعة سلاح مفيد جدًّا. لكن هذا كله يبدو كلامًا فارغًا و... وقد حدث هذا منذ زمن بعيد!»

«أخبريني. أخبريني كيف لك أن تعرفي بأمر دبوس القبعة؟ هل رأيته يومًا؟»

نظرت السيدة مَي نظرة عجب فقالت «نعم، طبعًا...»

«لا أتكلم عن دبوس القبعة. بل أحد الذين لا أدري ماذا سميتهم، أحد المقترضين؟»

أخذت السيدة مَي نفسًا قويًّا وقالت بسرعة «لا، لم أرَ واحدًا منهم قط».

«ولكن رآهم أحد آخر، وأنت على علم بذلك. أعرف أنك كذلك!»

«إششش. لا حاجة إلى الصراخ!»، قالت السيدة مَي ونظرت إلى الوجه المرفوع إليها ثم ابتسمت وسرحت عيناها في الأفق البعيد. «لي أخ...»، بدأت قولها مترددة.

جثت كيت على المتكأ «وهو مَن رآهم!»

قالت السيدة مَي تهز رأسها «لا أدري، لا أدري!» ومددت رقعتها على ركبتها. «كان مزعجًا. أخبرنا بأمور كثيرة -أنا وأختي- أمور مستحيلة». وأردفت بهدوء، «قُتل قبل سنوات عديدة على الجبهة الشمالية الغربية. أصبح كولونيلًا في كتيبته، ومات «ميتة الأبطال» كما يقولون...»

«أكان أخاكما الوحيد؟»

«نعم، وهو أخونا الصغير. أظن أن هذا ما دعاه...»، فكرت لحظة وهي لا تزال تبتسم لنفسها، «نعم، هذا ما دعاه إلى إخبارنا بقصص مستحيلة، وبخيالات غريبة. أظنه كان غيورًا لأننا أكبر منه، ولأننا نحسن القراءة أكثر منه. ربما أراد أن يثير إعجابنا، وأن يصدمنا. ومع ذلك...»، نظرت إلى النار، «كان فيه شيء -ربما لأننا نشأنا في الهند بين الغموض والسحر والأساطير- شيء جعلنا نظنه رأى أشياء لا يراها الآخرون، ونعرف أحيانًا أنه يغايظنا، ولم نكن على يقين من ذلك في أحيان أخرى...»، مالت إلى الأمام، وبأسلوبها الأنيق كنست نفثة من الرماد السائب تحت الموقد، ثم نظرت ثانية إلى النار والفرشاة في يدها. «لم يكن ولدًا صغيرًا قويًا، ولدى عودته من الهند أول مرة أصابته حمى رثية، وفاته فصلٌ كامل

من العام الدراسي وأُرسل إلى الريف للنقاهة. إلى منزل عمة كبرى. ذهبت إليه بنفسي في وقت لاحق، كان بيتًا قديمًا غريبًا...»، علّقت المكنسة بخطافها النحاسي، ونفضت يديها على منديلها، ثم عادت إلى حياكتها وقالت «الأفضل أن تشعلي المصباح».

قالت كيت وهي تميل إلى الأمام «ليس الآن. أكملي من فضلك، أخبريني أرجوك...»

«لكني أخبرتك».

«لا لم تفعلي. ذاك البيت القديم، ألم يرَ فيه، ألم يرَ....؟»

ضحكت السيدة مَي. «رأى فيه المقترضين؟ بلى، هذا ما قاله لنا... هذا ما جعلنا نصدقه. ولم يرهم وحسب، بل عرفهم حق المعرفة، وغدا جزءًا من حياتهم، بل يمكنك القول إنه غدا مقترضًا هو الآخر...»

«أوه، أخبريني أرجوك. حاولي أن تتذكري. من البداية!»

«ولكني أتذكر. الغريب أنني أتذكر الأمر أكثر من أمور أخرى حقيقية كثيرة حدثت. في طريق العودة من الهند، اضطررنا أنا وأخي إلى تقاسم المقصورة -اعتادت أختي أن تنام مع المربية- وفي تلك الليالي الحارة، يجافينا النوم، فيتكلم أخي ساعات وساعات، يطرق المواضيع نفسها مرارًا وتكرارًا، ويكرر الأحاديث، ويعيد على مسامعي التفاصيل المرة بعد الأخرى، متسائلًا عن أحوالهم وما يفعلونه و...»

«أحوالهم؟ ومن هم حقًّا؟»

«هومِلي وپود وآريتي».

«پود؟»

«نعم، حتى أسماؤهم لم تكن بالأسماء العادية. فقد تصوروا أن لهم أسماءهم التي تختلف كل الاختلاف عن أسماء بني البشر. ولكن يسع المرء معرفة أنها أسماء مقترضة وإن لم يولهم كل اهتمامه. حتى اسم العم هندريري وإغلتينا. كل ما لديهم مقترض، لا يملكون شيئًا. لا شيء. وعلى الرغم من هذا، فقد كانوا حساسين ومترفعين، ويظنون أنهم يملكون العالم، كما قال أخي».

«ماذا تقصدين؟»

«يظنون أن بني البشر خلقوا للقيام بالأعمال القذرة؛ أي أنهم عبيد كبار سُخّروا لخدمتهم. أو هذا ما تناقلوه بينهم. لكن أخي قال إنهم خائفون. ورأى أنهم في الأسفل، غدوا صغارًا لخوفهم. وكل جيل يغدو أصغر من سَلفه وأكثر اختباء. في الماضي البعيد، وفي بعض أنحاء إنجلترا، تكلم أسلافنا جهارًا عن «الصغار»».

«نعم، أعرف».

«أما اليوم، فأظنهم، إن وُجدوا، سيكونون في بيوت قديمة وهادئة وفي أعماق الريف، وفي الأماكن التي يعيش فيها البشر وفق نظام. فالنظام منجاتهم، مهم عندهم أن يعرفوا أي الغرف تُستخدم ومتى. ولا يقيمون طويلًا في الأماكن التي يسكنها أناس مهملون أو أطفال فوضويون، أو حيوانات منزلية أليفة».

كان هذا البيت القديم الغريب مثاليًّا، على الرغم من أنه بارد وفارغ قليلًا، ولكن بعضهم لم يأبه لهذا. كانت العمة صوفي طريحة الفراش جراء حادثة صيد وقعت قبل زهاء عشرين سنة، أما البشر الآخرون فهم السيدة درايڤر الطاهية، وكرامفيرل البستاني وفي أوقات نادرة تأتي خادمة غريبة أو ما شابه. وأخي أيضًا، عندما ذهب بعد إصابته بالحمى الرثية، اضطر إلى قضاء ساعات طويلة في الفراش، وفي الأسابيع الأولى لم يعلم المقترضون بوجوده.

فقد نام في حجرة الأطفال القديمة الواقعة خلف حجرة الدرس. كان أثاث حجرة الدرس وقتئذ مغطى بالملاءات ومجللًا وازدحمت الحجرة بسقط المتاع؛ كصناديق قديمة وآلة خياطة معطلة، وطاولة كتابة ودمية تفصيل الثياب، وطاولة وبعض الكراسي وصندوق موسيقي متروك، لأن الصغار الذين استخدموها، وهم أبناء العمة الكبيرة صوفي، قد كبروا منذ زمن بعيد وتزوجوا أو ماتوا أو سافروا. تطل حجرة الأطفال على حجرة الدرس، ورأى أخي من فراشه اللوحة الزيتية لمعركة واترلو المعلقة فوق مدفأة حجرة الدرس، وعلى الحائط خزانة في الزاوية لها أبواب زجاجية وُضع فيها طقم شاي لدمية، مرتب على الخطافات والرفوف، أنيق وقديم جدًا. وإذا كان باب حجرة الدرس مفتوحًا في الليل، يرى الممر المضاء المؤدي إلى الدرج، فيرتاح لمرأى السيدة درايڤر تظهر عند رأس الدرج كل مساء وقت الشفق، وتقطع الممر حاملة صينية للعمة صوفي فيها بسكويت باث أولِڤر ودورق طويل من الزجاج

المحفور فيه نبيذ ماديرا الفاخر الفاتح المعتق. تقف السيدة درايڤر في طريق خروجها وتخفف شعلة القنديل في الممر إلى لهب خافت أزرق، ويراقبها وهي تتثاقل نازلة الدرج، تغوص ببطء بين حواجز الدرج بعيدًا عن ناظريه.

تحت هذا الممر في البهو السفلي ساعةٌ، يسمعها تدق معلنة الوقت أثناء الليل. كانت ساعة جدارية قديمة جدًّا. يأتي السيد فرِث من لايتن بَزَرْد كل شهر ليعبئها، مثلما أتى أبوه من قبل وعمه الكبير قبله. يقال إنها لم تتوقف طوال ثمانين عامًا (وهذا ما أكده السيد فرِث)، ولم يعلم أحد أنها توقفت قبل ذلك قط. والعجيب أنها يجب ألا تُحرك، فظلت مستندة إلى تلبيسة الخشب، وكثيرًا ما غسلت البلاطات المحيطة بها حتى ظهرت داخلها سدّة صغيرة، كما قال أخي.

وتحت هذه الساعة، أسفل التلبيسة الخشبية فتحة....

# الفصل الثاني

مكتبة ياسمين

كانت تلك فتحة پود، والساعة سور قلعته ومدخل بيته. ولا يعني هذا أن بيته قريب من الساعة، بل يسعك القول إنه بعيد عنها. وامتدت ياردات من الممرات المظلمة والمغبرة، لها أبواب خشبية بين العوارض وبوابات معدنية لصد الفئران. واستخدم پود صنوف الأشياء في هذه البوابات، كصفيحة من مبشرة الجبن، وغطاء حصالة صغيرة ذي مفصلات، ومربعات من الزنك المثقب المأخوذ من نملية قديمة، ومذبّة سلكية... تقول هوملي «لا يعني هذا أني أخاف الفئران، لكني لا أطيق رائحتها». وتوسلت أرييتي بلا جدوى للحصول على فأر، فأر صغير أعمى تربيه «مثلما فعلت إغلتينا». لكن هوملي قرعت أغطية القدور وقالت «وانظري ماذا حدث لإغلتينا!»، فتسألها أرييتي «ماذا حدث؟ ماذا حدث لإغلتينا؟» غير أن أحدًا لم يجب عن سؤالها قط.

كان پود الوحيد الذي يعرف الطريق بين الممرات المتقاطعة المؤدية إلى الحفرة الواقعة تحت الساعة. وهو الوحيد الذي

يفتح البوابات، إذ لها مزاليج معقدة صنعت من دبابيس الشعر والمشابك ولا يعرف سرها إلا پود. وعاشت زوجته وابنته حياة أكثر أمنًا في الغرف الشبيهة بالبيوت تحت المطبخ، بعيدتين كل البعد عن الأخطار والأهوال في البيت المخيف في الأعلى. ولكنّ في جدار البيت المبني من الطوب منفذًا شبكيًّا، تحت أرضية المطبخ في الأعلى، ترى منه أرييتي الحديقة التي تتألف من درب مفروش بالحصى وأيكة يتفتح فيها الزعفران ربيعًا، وتنساب الزهور من شجرة لا ترى، وتزهر فيه شجيرات الأزاليا في وقت لاحق، وترتادها الطيور فتنق وتتغازل وتتشاجر أحيانًا. قالت هوملي «تقضين ساعات في مراقبة هذه الطيور، وعندما يتوجب عليك إنهاء عمل تشتكين من قلة الوقت. لقد نشأتُ في بيت بلا منفذ شبكي، وكنا أسعد بذلك. اذهبي الآن واجلبي لي بعض البطاطا».

كان ذلك هو اليوم الذي دحرجت فيه أرييتي البطاطا أمامها من بيت المؤونة في الزقاق الضيق الواقع تحت ألواح الأرضية، وركلتها نزقة حتى تدحرجت سريعًا إلى مطبخهم حيث كانت هوملي منحنية أمام الموقد.

قالت هوملي وهي تدور غاضبة «ها أنت من جديد، وكدت توقعيني في الحساء. وعندما قلت «بطاطا» فلم أقصد ثمرة كاملة. خذي المقص واقطعي شريحة».

غمغمت أرييتي قائلة «لم أعرف مقدار ما تحتاجين»، فنخرت

هوملي وتنشقت، وأنزلت من مسمار في الحائط نصل مقص أظافر بمقبضه، وأخذت تقطع وتقشر.

فقالت عابسة «لقد أفسدت هذه البطاطا. لا يمكنك أن تعيديها وأنت تدحرجينها على كل هذا التراب، ليس بعد أن قطعناها».

«وماذا في ذلك؟ لدينا كثير منها».

قالت هوملي بأسى وهي تنزل نصف المقص «يا له من كلام جميل. كثير منها. هل تدركين أن أباك المسكين يخاطر بحياته كلما اقترض بطاطا؟»

«قصدت أن في بيت المؤونة كثيرًا منها».

قالت هوملي وقد عادت إلى استعجالها «حسن، ابتعدي عن طريقي الآن، أيًا كان قصدك، ودعيني أعدّ العشاء».

تهادت أرييتي خارجة من الباب المفتوح إلى حجرة الجلوس، فقد أشعلت النار وكانت الغرفة مضيئة ومريحة. افتخرت هوملي بغرفة جلوسها، إذ ورّقت الجدران بقصاصات من رسائل قديمة أخذتها من سلة المهملات، ورتبت الكتابة في خطوط عمودية تمتد من الأرض إلى السقف. وعلى الجدران عُلّقتْ صورٌ كثيرة متعددة الألوان للملكة ڤكتوريا في صباها، وكانت هذه طوابع بريدية اقترضها پود قبل سنوات من صندوق الطوابع الموضوع على المكتب في الغرفة الصباحية. كما وجد صندوق حلي مطليًّا بالورنيش، مبطنًا من الداخل مفتوح الغطاء جعلوا منه مقعدًا، وتلك الطاولة الجانبية

خزانة أدراج صنعت من علب الثقاب. ثمة طاولة مدوّرة مغطاة بمفرش من المخمل الأحمر، صنعها پود من قاع صندوق حبوب الدواء الخشبي ثُبّت على قاعدة فارس من لعبة الشطرنج. (أثار هذا متاعب كثيرة في الطابق الأعلى عندما دعا الابن البكر للعمة صوفي، في زيارة خاطفة منتصف الأسبوع، القسَ للعب الشطرنج بعد العشاء. تركت الخادمة روزا پكهاتشت العملَ في ذلك الوقت، وتبين فقدان بعض الأشياء بعد رحيلها، ومنذ ذلك اليوم تولت السيدة درايڤر زمام الأمور. أما فارس الشطرنج -نصفه العلوي بالأحرى- فقد وقف على عمود في الزاوية، وكان حسن المظهر، وأضفى على الغرفة ذلك الطابع الذي لا يمنحه إلا وجود التماثيل.

قرب النار في خزانة خشبية مائلة كانت مكتبة أرييتي. كانت مجموعة من المجلدات المصغرة التي أحب الڤكتوريون طباعتها، لكنها بحجم الكتاب المقدس الكبير في الكنيسة في نظر أرييتي. ومن بينها **أطلس توم ثمب** طبعة دار برايس ومعها العدد الأخير، **وقاموس توم ثمب** طبعة دار برايس، وفيه شروحات قصيرة لمصطلحات علمية وفلسفية وأدبية وتقنية، ونسخة **توم ثمب من ملاهي وليم شكسبير** وفيها تمهيد من الكاتب، وكتاب آخر صفحاته كلها بيضاء عنوانه **مذكرات**، وأخيرًا وليس آخرًا الكتاب المفضل لأرييتي **يوميات توم ثمب** وكتاب **الأمثال**(*) الذي يضم

(*) توم ثمب شخصية من التراث الشعبي الإنجليزي، لا يزيد حجمه على حجم الإبهام، وله حكايات كثيرة منها ما يربطه بالملك آرثر. والكتب المذكورة كتب مصغرة حقيقية بالعناوين نفسها، صادرة كلها عن دار برايس.

قولًا في كل يوم من السنة وتوطئة، وسيرة حياة رجل صغير يدعى الجنرال توم ثمب، الذي تزوج فتاة اسمها ميرسي لاڤينيا بمپ. كان فيه نقش لعربتهما التي يجرها حصانان صغيران بحجم الفأرين. ليست أرييتي بالفتاة الغبية، إذ أدركت أن الحصانين ليسا صغيرين كالفأرين، لكنها لم تدرك أن توم ثمب، الذي يكاد يبلغ قدمين طولًا، سيكون عملاقًا في عين المقترض.

تعلمت أرييتي القراءة من هذه الكتب، وتعلمت الكتابة بالانتحاء جانبًا ونسخ المكتوب على الجدران. وعلى الرغم من هذا، فإنها لم تنتظم في كتابة يومياتها، وإن أخرجت الدفتر معظم الأيام لتقرأ القول الذي يبث الراحة في نفسها أحيانًا. والقول لهذا اليوم هو «قد تتقدم أكثر وتزيد الأمر سوءًا»، وتحته «وسام فارس الرباط، منح عام ١٣٤٨». حملت الكتاب قرب النار وجلست ورفعت قدميها على مسند الأقدام.

نادتها هوملي من المطبخ «ماذا تفعلين يا أرييتي؟»

«أكتب يومياتي».

قالت هوملي باقتضاب «أوه».

سألتها أرييتي «ماذا أردت؟»، لقد أحست بالأمان، فهوملي تحب لها أن تكتب، وهي تشجع كل شكل من أشكال الثقافة. أما هوملي، فهي امرأة مسكينة أمية، لا تحسن تعداد الأحرف. قالت هوملي غاضبة وهي تخبط أغطية القدور «لا شيء. لا شيء. سأفعله

في وقت لاحق». أخرجت أرييتي قلم الرصاص، كان أبيض صغيرًا وُصل به شريط صغير من الحرير، حصلوا عليه من حفلة راقصة، ولكنه بدا في يد أرييتي مرقاق عجين.

نادت هوملي من المطبخ مجددًا «أرييتي!»

«نعم؟»

«هلا زدت النار قليلًا؟»

مططت أرييتي عضلاتها وألقت بالكتاب عن ركبتيها، وأوقفته على الأرض. يحفظون الوقود المصنوع من شحم الشموع المنوع المتوسط الجودة في وعاء قصديري للخردل، فغرفت منه بملعقة. أوقعت أرييتي حبات قليلة، وقد أمالت ملعقة الخردل لئلا تفسد النار، ووقفت هناك تتنعم بالدفء. كان موقدًا آسرًا، صنعه جد أرييتي من دولاب مسنن من الإسطبلات، كان جزءًا من معصرة قديمة للتفاح. برزت قضبان الدولاب في أشعة نجمية واستكنّت النار في وسطها، تعلوها مدخنة صنعت من قمع نحاسي صغير مقلوب. كان هذا ذات يوم قمعًا لمصباح زيتي يشبهه، وضع في الأيام الخوالي على طاولة البهو في الأعلى. وحمل عدد من الأنابيب الموصولة بفوهة القمع الأبخرةَ إلى مداخن المطبخ في الطابق الأعلى. تُلقى إلى النار أعواد الثقاب وتُزاد من الشحم المنوع، وكلما علا لهيبها سخن الحديد فوقها فتعد عندها هوملي الحساء على القضبان في كشتبان فضي وتشوي أرييتي المكسرات. يا لدفء هذه

الأمسيات الشتوية. كانت أرييتي تقرأ بصوت عالٍ أحيانًا وهي تضع كتابها الكبير على ركبتيها، وقد هدّ التعب پود (كان إسكافًا، ويصنع أحذية ذات أزرار من قفازات الأطفال، وما عاد يصنعها اليوم إلا لأسرته) وجلست هوملي خائرة القوى للحياكة.

نسجت هوملي الثياب والجوارب بدبابيس سوداء الرؤوس وأحيانًا بصنارات النسيج. فترى بكرة كبيرة من الحرير أو القطن يبلغ ارتفاعها حد الطاولة قرب كرسيها، وإذا شدّت الخيط بقوة انقلبت البكرة وتدحرجت خارج الباب المفتوح إلى الممر المغبر، فترسل أرييتي لإعادتها، ولفّها من جديد وهي تدحرجها.

فُرشت أرضية غرفة الجلوس بورق نشاف أحمر داكن، دافئ ومريح ويمتص ما يقع عليه. وكانت هوملي تجدده بين الحين والحين كلما توفر في الطابق الأعلى، ولكن منذ لزمت العمة صوفي فراشها، لم تفكر السيدة درايڤر في ورق النشاف، إلا لدى مجيء ضيوف مفاجئين. أحبت هوملي الأشياء التي لا تحتاج غسيلًا لأن التجفيف صعب تحت الأرض، فالماء وفير لديهم، حارًّا وباردًا، والفضل لوالد پود الذي أوصل الأنابيب من سخان المطبخ. كانوا يستحمون في وعاء صغير قُدِّم فيه ذات يوم كبد الإوز المسمّن. وعلى المرء أن يغطي الوعاء بعدما ينهي اغتساله لئلا يضع الآخرون فيه أشياء. كما توفر لهم الصابون أيضًا، فقد عُلّق لوح كبير بمسمار في ملحق المطبخ، وكانوا يكشطون منه قطعًا. أحبت هوملي فحم القطران، لكن پود وأرييتي فضّلا خشب الصندل.

نادت هوملي من المطبخ «ماذا تفعلين الآن يا أرييتي؟»

«ما زلت أكتب يومياتي».

ومرة أخرى أمسكت أرييتي الكتاب وألقت به على ركبتيها. لعقت سن القلم الكبير، ونظرت لحظة غارقة في أفكارها. سمحت لنفسها (كلما تذكرت) بأن تكتب سطرًا واحدًا صغيرًا في كل صفحة لأنها لن تحصل على دفتر آخر -وهي واثقة بهذا- وإذا ما كتبت عشرين سطرًا في كل صفحة فإن الدفتر سيرافقها عشرين عامًا. لقد بدأت فيه منذ عامين، واليوم هو الثاني والعشرين من مارس، فقرأت ما كتبته العام الماضي «أمي نزقة»، وفكرت قليلًا ثم وضعت علامات التكرار تحت «أمي» وكتبت «قلقة» تحت «نزقة».

نادت هوملي من المطبخ «ماذا قلت إنك تفعلين؟»

أغلقت أرييتي الدفتر وقالت «لا شيء».

«تعالي وقطعي البصل لي يا ابنتي المطيعة. تأخر والدك الليلة...»

# الفصل الثالث

تركت أرييتي يومياتها وهي تتنهد ودخلت إلى المطبخ. أخذت حلقة البصل من هوملي وألقتها بخفة حول كتفيها، وهي تبحث عن قطعة من نصل موسى. فقالت هوملي «هل أنت جادة يا أرييتي؟ على ثيابك النظيفة! أتودين أن تفوح منك رائحة كرائحة سلة القمامة؟ إليك، خذي المقص...»

توسطت أرييتي حلقة البصل كأنها طوق أطفال، وأخذت تقطّعها إلى قطع.

غمغمت هوملي مجددًا «تأخر والدك، وهذه غلطتي إن أردنا الحق. يا إلهي، أوه يا إلهي. ليتني لم...»

سألتها أرييتي بعينين مخضلتين «ليتك لم ماذا؟»، ونشقت نشقة عالية وتحرقت إلى فرك أنفها بكمّها.

أرجعت هوملي خصلة رفيعة من الشعر بيد قلقة، ونظرت إلى أرييتي شاردة الذهن وقالت «إنه فنجان الشاي الذي كسرتِه».

فقالت أرييتي وهي تطرف جفنيها ونشقت ثانية «لكن هذا حدث منذ أيام...»

«أعرف، أعرف. لا أتكلم عنك، بل عني. لا يهمني الكسر، بل ما قلته لأبيك».

«وماذا قلت له؟»

«حسن، لم أقل إلا... قلت إن بقية الطقم في الأعلى، في مكانه المعتاد، في زاوية الخزانة في حجرة الدرس».

قالت أرييتي وهي تلقي بقطع البصل في الحساء واحدة تلو الأخرى «لا أرى بأسًا في ما قلته».

«إنها خزانة عالية. لا بد من التسلق على الستارة. ووالدك في هذا العمر...»، وجلست فجأة على سدادة زجاجة شمپانيا سطحها معدني. «أوه يا أرييتي، ليتني لم أقل ذلك!»

«لا تقلقي. يعرف بابا ما يفعل».

وسحبت سدادة قنينة لها رائحة المطاط من ثقب في أنبوب المياه الساخنة وسمحت لسيل من القطرات الحارقة أن يصب في غطاء صفيحي لزجاجة الأسبرين. وزادته ماء باردًا وأخذت تغسل يديها.

«ربما. لكني بالغت في الحديث عنه. وما فنجان الشاي! لم يشرب خالك هندريري شيئًا إلا في كوب كوزي عادي، وقد عاش عمرًا مديدًا مثمرًا وتمتع بالقوة على السفر. لم تملك عائلة أمي شيئًا

إلا كشتبانًا من العظام تداولوه بينهم. ولكن إن شربت بفنجان الشاي مرة، أتفهمين ما أعنيه...»

قالت أريتي وهي تنشف يديها بمنشفة أسطوانية صنعت من ضمادة طبية «نعم».

«إنها الستارة. لا يمكنه تسلق الستارة وهو في هذا العمر، في وجود تلك الكرات!»

«يستطيع استخدام دبوسه».

«دبوسه! أنا التي حرضته على ذلك أيضًا! قلت له خذ دبوس القبعة، واربط على رأسه قليلًا من شريط القياس، واسحب نفسك إلى الأعلى. كان ينوي اقتراض الساعة الزمردية من غرفة نومها لأراقب وقت الطهي»، بدأ صوت هوملي يتهدج «أمك امرأة شريرة يا أرييتي. شريرة وأنانية، هذه حقيقتها!»

قالت أرييتي فجأة «أتعرفين؟»

دفعت هوملي دمعة وقالت متأوهة «لا. ماذا؟»

«أستطيع تسلق الستارة».

هبت هوملي واقفة «كيف تجرُئين على الوقوف هناك بدم بارد وقولك شيئًا كهذا يا أرييتي؟!»

«لكني أستطيع! أستطيع! أستطيع الاقتراض! أنا واثقة بقدرتي!»

قالت هوملي لاهثة «آه! آه يا لك من فتاة شريرة جاحدة! كيف

تقولين شيئًا كهذا؟!» وتهاوت من جديد على السدادة وقالت «لم يبقَ إلا هذا!»

توسلت إليها أريتي «هيا يا أمي أرجوك، لا تعترضي!»

فردت هوملي شاهقة «ولكن ألا تفهمين يا أرييتي...»، ونظرت إلى الطاولة وقد ضاع منها الكلام ثم رفعت في النهاية وجهها الذاوي وقالت «يا طفلتي المسكينة. لا تتكلمي عن الاقتراض هكذا. فأنت لا تعرفين، وأحمد الرب أنك لن تعرفي»، وخفضت صوتها ليصبح همسًا خائفًا «ما شكل الطابق الأعلى...»

صمتت أرييتي، ثم سألت «وما شكله؟»

مسحت هوملي وجهها بمئزرها وسرحت شعرها وقالت «خالك هندريري، والد إغلتينا...»، وصمتت وقالت «اسمعي! ما هذا؟»

كان اهتزازًا خفيفًا يتردد صداه في الخشب، صوت نقرة بعيدة. قالت هوملي «إنه أبوك! أوه يا لمظهري! أين المشط؟»

كان عندهم مشط، مشط حواجب فضي صغير يعود إلى القرن الثامن عشر حصلوا عليه من خزانة في صالة الاستقبال في الأعلى. مررته هوملي خلال شعرها وغسلت عينيها الحمراوين الضعيفتين، وعندما دخل پود، كانت تبتسم وتعدل مئزرها.

# الفصل الرابع

دخل پود بتؤدة وجرابه على ظهره، وأسند إلى الحائط دبوس القبعة الذي يتدلى منه شريط القياس، ووضع وسط طاولة المطبخ فنجان شاي الدمى، الذي بدا في حجم وعاء للمزج.

قالت هوملي «آه يا پود...»

«جلبت الصحن أيضًا»، وأنزل الجراب عن ظهره وحلّه قائلًا وهو يخرج صحن الفنجان «خذي، إنه يناسبه».

كان وجهه مدورًا ككعكة الزبيب، أما الليلة فبدا فاتر الهمة.

قالت هوملي «آه يا پود. مظهرك غريب، هل أنت على ما يرام؟»

جلس پود وقال «أنا في أحسن حال».

«لقد تسلقت الستارة. آه منك يا پود، ما كان عليك ذلك. لقد أتعبتك...»

ارتسمت نظرة غريبة على وجه پود، وألقى نظره ناحية أريتي.

نظرت إليه هوملي فاغرة الفم، ثم التفتت قائلة بنشاط «تعالي يا أرييتي، أخلدي إلى فراشك كالفتيات المطيعات، وسأحضر لك بعض العشاء».

قالت أرييتي «آه، ألا أستطيع رؤية بقية الأشياء المقترضة؟»

«لم يجلب أبوك شيئًا الآن سوى الطعام. هيا اذهبي إلى فراشك. لقد رأيت الفنجان والصحن».

ذهبت أرييتي إلى غرفة الجلوس لإعادة دفتر يومياتها، واستغرقت بعض الوقت في تثبيت شمعتها على دبوس الحائط المقلوب الذي اتخذته حاملًا.

تأففت هوملي قائلة «ماذا تفعلين؟ تعالي إلى هنا. هيا، من هنا الطريق. والآن أخلدي إلى فراشك وتذكري أن تطوي ثيابك».

قالت أرييتي وهي تقبل خد أبيها النحيف الشاحب «تصبح على خير يا بابا».

فقال لها تلقائيًا «انتبهي من الشمعة»، وراقبها بعينيه المدورتين حتى أغلقت الباب.

قالت هوملي بعد ذهابها «والآن يا پود، أخبرني ما الأمر؟»

نظر إليها پود نظرة فارغة وقال «لقد «شوهدت»».

وضعت هوملي يدًا متلمسة على طرف الطاولة، وتشبثت بها ونزلت ببطء إلى المقعد وقالت: «ويلي يا پود».

ساد الصمت بينهما، ونظر پود إلى هوملي التي نظرت إلى الطاولة. ثم رفعت وجهها الشاحب وسألت «على نحو سيئ؟»

تململ پود وقال «لا أعلم على أي نحو. لقد «شوهدت»، أليس هذا بسيئ في حد ذاته؟»

تكلمت هوملي ببطء «لم يُشاهد أحد منذ الخال هندريري، ويقولون إنه الأول منذ خمسة وأربعين عامًا». خطرت لها فكرة وجذبت الطاولة «هذا ليس حسنًا يا پود. لن أرحل!»

«لم يطلب منك أحد ذلك».

«أن نذهب ونعيش كهندريري ولوپي في جحر الغرير! يقولون إنه يقع في الجانب الآخر من العالم، بين ديدان الأرض».

«يبعد عنا حقلين، وراء الخميلة».

«يأكلون الثمار، والتوت. ولن أعجب إن أكلوا الفئران...»

ذكّرها پود قائلًا «وأنتِ أكلتِ الفئران».

«تيارات هوائية وهواء طلق ويصبح الأولاد جامحين. فكر في أرييتي! تذكر كيف نشأت. طفلة وحيدة. ستموت هناك. الأمر مختلف عند هندريري».

«ولماذا؟ عنده خمسة».

«هذا هو السبب. إن كان لك من الأولاد خمسة، فقد نشؤوا خشنين. ولكن لا تلقِ بالًا لهذا الآن... من رآك؟»

«ولد».

قالت هوملي محملقة «ماذا؟»

رسم پود شكلًا غير متقن في الهواء بيديه «ولد. تعرفين ما الولد».

«ولكن ليس في الأعلى... أعني أي نوع من الأولاد؟»

«لا أدري ماذا تقصدين بقولك «أي نوع من الأولاد». ولد يلبس ثياب النوم. ولد. أنت تعرفين ما الولد، ألا تعرفين؟»

«بلى، أعرف ما الولد. ولكن لم يكن في الأعلى ولد، ليس في هذا البيت طوال السنوات العشرين».

«طيب، ثمة واحد الآن».

نظرت إليه هوملي في صمت، وتلاقت أعينهما فسألته أخيرًا «أين رأيته؟»

«في حجرة الدرس».

«أوه، وأنت تأخذ الفنجان؟»

«نعم».

«أليس لك عينان؟ ألم تستطِع النظر أولًا؟»

«لا أحد في حجرة الدرس عادة، والأدهى أنه لم يكن فيها أحد اليوم».

«أين كان إذن؟»

«في الفراش. في حجرة الأطفال الليلية أو أيًّا كان اسمها. كان هناك، جالسًا في فراشه، والأبواب مفتوحة».

«طيب، كان عليك النظر إلى حجرة الأطفال».

«وكيف لي وقد تسلقت نصف الستارة؟!»

«أكنت هناك؟»

«نعم».

«حاملًا الفنجان؟»

«نعم، لم أستطِع صعودًا ولا نزولًا».

تحسرت هوملي «آه يا پود، ما كان عليَّ أن أدفعك إلى الذهاب. ليس في هذا العمر!»

«اسمعيني الآن. لا تلوميني. لقد أحسنت التسلق، تسلقت كعصفور، إن جاز القول، في وجود الكرات أو عدمها. ولكن...» مال ناحيتها وقال «ثم، والفنجان في يدي، إن فهمت ما أعنيه...»، ورفعه عن الطاولة. «انظري إنه ثقيل، تحملينه من المقبض هكذا... لكنه يسقط أو يتأرجح، إن جاز القول. عليك أن تحملي فنجانًا كهذا بكلتا يديك. لو كنت أحمل قطعة من الجبن أخذتها من الرف، أو تفاحة... حسن، لأوقعتها... لدفعتها ووقعت ونزلت على مهلي وحملتها. ولكن الفنجان... أتفهمين ما أعنيه؟ وعند النزول عليك

أن تنتبهي إلى قدميك. ومثلما قلت، كانت بعض الكرات مفقودة. ولم أعرف بأي شيء أتمسك، ليس ذلك آمنًا...»

قالت هوملي بعينين دامعتين «آه يا پود. ماذا فعلت؟»

قال پود وهو يعود إلى الجلوس «حسنًا، لقد أخذ الفنجان».

قالت هوملي مذعورة «ماذا تقصد؟»

تحاشى پود النظر إلى عينيها. «كان يجلس معتدلًا في فراشه يراقبني. ولقد قضيت في تسلق الستارة عشر دقائق كاملة، لأن ساعة البهو دقت الربع...»

«ولكن ماذا تقصد بقولك «أخذ الفنجان»؟»

«نهض من فراشه ووقف هناك، ناظرًا إلى الأعلى وقال «سأحمل الفنجان»».

شهقت هوملي وعيناها تبحلقان «وأعطيته له؟»

«أخذه. برفق شديد. ثم أعطاه لي بعد نزولي»، وضعت هوملي وجهها بين يديها، فقال پود بضيق «لا تلوميني».

ارتجفت هوملي وقالت بصوت مخنوق «كان له أن يمسكك».

«نعم. ولكنه أعطاني الكوب وقال «خذ»».

رفعت هوملي وجهها وسألت «ماذا سنفعل؟»

تنهد پود «لا يسعنا فعل شيء. إلا...»

«أوه لا. ليس هذا. ليس الرحيل، ليس هذا يا پود، الآن بعدما ما صار البيت جميلًا وعندي ساعة وكل شيء».

«نستطيع أخذ الساعة».

«وأرييتي؟ ماذا عنها؟ إنها ليست كأقربائها. فهي تحسن القراءة يا پود، وتحسن خياطة ...»

«لا يعرف أين نسكن».

«لكنهم ينظرون. تذكر هندريري! أمسكوا القط و...»

«اهدئي، اهدئي، ولا تستعيدي الماضي».

«عليك أن تتذكر الماضي! لقد أمسكوا القط و...»

«نعم، لكن إغلتينا مختلفة».

«كيف؟ إنها في عمر أرييتي».

«لم يخبروها كما تعلمين. هذا خطؤهم. لقد حاولوا إقناعها ألا شيء إلا ما هو تحت الأرض. لم يخبروها قط عن السيدة درايڤر أو كرامفيرل. إلى جانب كل القطط».

أشارت هوملي «لم يكن هناك أي قط، إلا بعد أن «شوهد» هندريري».

«طيب، فالقط موجود. أقول إن علينا إخبارهم، أو سيكتشفون الأمر بأنفسهم».

قالت هوملي بجدية «نحن لم نخبر أرييتي يا پود».

قال پود وهو يتحرك قلقًا «أوه، إنها تعرف. ففي غرفتها منفذ شبكي».

«لا تعرف بأمر إغلتينا. لا تعرف عن «المشاهدة»».

«طيب، سنخبرها. لطالما قلنا إننا سنفعل. لا داعي إلى العجلة».

نهضت هوملي وقالت «سنخبرها الليلة يا پود».

# الفصل الخامس

لم تكن أرييتي نائمة، بل كانت راقدة تحت غطائها المنسوج تحملق إلى السقف. كان سقفًا لافتًا، فقد بنى پود غرفة أرييتي من صندوقي سيجار، وعلى السقف رسوم لسيدات جميلات يلبسن أمواجًا من الشيفون وينفخن في آلات ترومبيت طويلة وخلفهن سماء زرقاء، وفي الأسفل نخلات كالريش وبيوت بيضاء صغيرة تحيط بساحة. كان منظرًا بديعًا ولا سيّما في ضوء الشمعة، لكن أرييتي حملقت الليلة إلى السقف دون أن ترى. كان خشب صندوق السيجار رفيعًا، وسمعت أرييتي، الممددة في فراشها ولم تزل تحت لحافها، علوّ أصوات قلقة وخفوتها. سمعت اسمها، وسمعت هوملي تقول في عجب «ثمار وتوت، هذا ما يأكلونه!»، وسمعت بعد مدة صرخة حُرقة «ماذا سنفعل؟»

وعندما وقفت هوملي إلى جوار سريرها، لفَّت نفسها بلحافها طائعة ومشت حافية في الممر المغبر، وانضمت إلى والديها في المطبخ الدافئ. جثت على مقعدها الصغير وطوقت ركبتيها، ترتجف قليلًا

وتنقِّل نظرها إلى وجهيهما. اقتربت منها هوملي جاثية على الأرض، ووضعت ذراعًا حول كتفي أرييتي النحيلتين، وقالت بصوت خفيض «هل تعرفين عن الطابق الأعلى يا أرييتي؟»

«عن ماذا؟»

«أتعرفين شيئًا عن العملاقيْن؟»

«نعم. العمة الكبرى صوفي والسيدة درايڤر».

«صحيح، وكرامفيرل في الحديقة». ووضعت يدًا مخشوشنة على يدي أرييتي المشبوكتين «أتعرفين بأمر الخال هندريري؟»

فكرت أرييتي قليلًا وقالت «عن أمر انتقاله إلى الخارج؟»

صححت لها هوملي «بل هاجر إلى الجانب الآخر من العالم، مع الخالة لوبي والأولاد. إلى جحر غرير... حفرة في أيكة تحت شجيرات الزعرور البري. لماذا فعل هذا في ظنك؟»

أشرق وجه أرييتي وقالت «أوه، ليكون في الهواء الطلق... ليستلقي تحت الشمس... ليركض في العشب... ليتأرجح على الأغصان كما تفعل الطيور... ليلعق العسل...»

فاحتدت هوملي قائلة «كلام فارغ يا أرييتي. هذه عادة كريهة! وخالك هندريري رجل مصاب بالرثية. لقد هاجر...»، وواصلت كلامها مشددة على الكلمة «لأنه «شوهد»».

«أوه».

«شاهدته روزا پكهاتشت في الثالث والعشرين من إبريل عام ١٨٩٢، على رف المدفأة في صالة الاستقبال. من بين كل الأماكن...»، أضافت فجأة وهي تتعجب وحدها.

«أوه».

«لم أسمع قط ولم يجد أحدٌ الإفصاح عن السبب الذي دعاه إلى الذهاب إلى صالة الاستقبال في المقام الأول أمرًا مناسبًا. يؤكد لي أبوك ألا شيء فيها لا يمكن رؤيته من الأرض أو بالوقوف جانبًا على مقبض درج مكتب وتثبيت نفسك على المفتاح. هذا ما يفعله أبوك عندما يذهب إلى صالة الاستقبال...»

قال پود «قالوا إنه قرص للكبد».

فسألته هوملي متعجبة «ماذا تعني؟»

تكلم پود ضجِرًا: «قرص للكبد من أجل لوپي. نشر أحدهم شائعة بأن على رف المدفأة في صالة الاستقبال أقراصًا للكبد...»

قالت هوملي وقد بدت مستغرقة في التفكير «أوه. لم أسمع بهذا قط. الأمر سيان. لقد كان غباء وتهورًا. ولا سبيل للنزول إلا بحبل الجرس. يقولون إنها نفضته بمنفضة غبار من الريش، فتجمد في مكانه إلى جانب تمثال كيوپيد، وما كانت لتراه لولا أنه عطس. كانت جديدة في المكان ولم تعرف التحف. سمعنا زعيقها هنا تحت المطبخ، ولم يتمكنوا قط من إجبارها على تنظيف أي شيء بعد ذلك إلا الطاولات والكراسي، وخاصة بساط جلد البَبْر».

قال پود «لم أشغل نفسي بصالة الاستقبال قط، فكل شيء في مكانه، وهم يلاحظون ما يجري. ربما وُجد الشيء القليل على طاولة أو إلى جانب الكرسي في الأسفل، ولكن لا يمكن دخولها في وجود أحد، ولم تخلُ صالة الاستقبال يومًا، ولا مرة في السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الأخيرة. أستطيع أن أتلو عليك عن ظهر قلب، وأنا جالس على كرسيي هذا، كل شيء جميل فيها، بدءًا من الصوان المجاور للنافذة وحتى...»

قاطعته هوملي «في تلك الخزانة أشياء ثمينة. بعضها من الفضة الخالصة. لديهم كمان من الفضة الخالصة بأوتاره وكل شيء، مناسب لابنتنا أرييتي».

سأل پود «وما نفع كل هذه الأشياء الجميلة وهي محفوظة خلف الزجاج؟»

أشارت عليه أرييتي قائلة «ألم تستطِع كسره؟ زاوية صغيرة فقط؟ نقرة صغيرة فقط...»، وارتجف صوتها حين رأت الدهشة ترتسم على وجه أبيها.

قالت هوملي غاضبة «اسمعيني يا أرييتي»، ثم تمالكت نفسها وربتت على يدي أرييتي المشبوكتين، وقالت توجه كلامها إلى پود «إنها لا تعرف الكثير عن الاقتراض، فلا تلمها». ثم التفتت إلى أرييتي «الاقتراض عمل الماهرين، كالفن. من كل العائلات التي عاشت في هذا البيت لم يبقَ سوانا، أتعرفين السبب؟ لأن أباك يا

أرييتي أمهر مقترض عُرف في هذه النواحي منذ... حسن، من قبل زمن جدك. حتى خالتك لوبي أقرّت بهذا. رأيت أباك في شبابه يمشي على طاولة عشاء، بعد قرع الجرس آخذًا ثمرة أو حلوى من كل صحن، ونزل في ثنية المفرش عندما وقف بالباب أول الحاضرين. كان يفعل ذلك لهوًا، صحيح يا پود؟»

ابتسم پود ابتسامة واهنة وقال «لم يكن في ذلك لهو».

قالت هوملي «ربما، ولكنك فعلتها! ومن غيرك يجرؤ على ذلك؟»

قال پود «كنت شابًّا حينها»، ثم تنهد واستدار إلى أرييتي «نحن لا نكسر الأشياء يا فتاة. ليست هذه طريقتنا، ذلك ليس اقتراضًا...»

قالت هوملي «كنا يومها أغنياء. آه كم كان لنا من الأشياء الجميلة! كنت طفلة يا أرييتي ولا تتذكرين. كان عندنا جناح كامل من خشب الجوز من بيت الدمية وطقم من كؤوس النبيذ من الزجاج الأخضر وصندوق نشوق موسيقي، ويأتي الأقرباء ونحتفل. أتذكر يا پود؟ ليس الأقرباء فقط، بل جاء آل هارپسكورد. جاء الجميع، ما عدا آل أوڤرمانتل [فوق رف المدفأة] من الغرفة الصباحية. وكنا نرقص ونرقص ويجلس الصغار خارجًا عند المنفذ الشبكي. كان في صندوق النشوق ثلاث أغانٍ هي **كليمنتين وحفظ الرب الملكة واندفاع العربة الخفيفة**. كنا محسودين من الجميع، ومنهم آل أوڤرمانتل...»

سألتها أرييتي «ومن يكونون؟»

«أوه، لا بد أنك سمعتني أتكلم عنهم. الجماعة المتغطرسون الذين عاشوا في الجدار عاليًا، بين ألواح الخشب والجبس خلف رف المدفأة في الغرفة الصباحية. ويا لهم من عائلة غريبة. يدخن الرجال طوال الوقت لأن علب التبغ موضوعة هناك، وكانوا يتسلقون المكان ويدخلون ويخرجون من نقوش رف المدفأة، ويتزحلقون نزولًا من الأعمدة ويتفاخرون. والنسوة متعجرفات أيضًا، يتأملن أنفسهن إعجابًا في قطع المرايا على رف المدفأة. لم يدعين أحدًا قط إلى الصعود، وأنا عن نفسي لم أرغب مرة في الذهاب. لا أحب المرتفعات، ولم يطِق والدك الرجال. لقد عاش أبوك طوال عمره مستقيمًا، وليست علب التبغ فحسب، بل قناني الوسكي موضوعة في الغرفة الصباحية أيضًا ويقولون إن رجال أوڤرمانتل يكرعون بقايا الشراب في الكؤوس بعِيدانِ تنظيف الغليون المحفوظة فوق رف المدفأة. ولا أدري إن كان هذا صحيحًا لكنهم يقولون إن رجال أوڤرمانتل يقيمون حفلة كل ثلاثاء بعد مجيء وكيل الأملاك للحديث عن شؤون العمل في الغرفة الصباحية. مضطجعين على مفرش الطاولة الأخضر المخملي، وقد هدهم السُّكْر، -أو هذا ما تقوله الرواية- بين علب الصفيح ودفاتر الحسابات...»

قاطعها پود الذي لا يحب النميمة «مهلًا يا هوملي، لم أرهم قط».

«لكنك لا تستبعد ذلك منهم يا پود. لقد قلت لي عندما تزوجتك ألا أزور آل أوڤرمانتل».

«لأنهم يسكنون عاليًا، هذا هو السبب لا غير».

«طيب، لقد كانوا كسولين، لن تنكر هذا أيضًا. لم يكن لهم يومًا حياة عائلية. يدفئون أنفسهم بحرارة نار الغرفة الصباحية ولا يأكلون شيئًا سوى طعام الإفطار، وهو طبعًا الوجبة الوحيدة التي تقدم في الغرفة الصباحية».

سألت أرييتي «وماذا حدث لهم؟»

«عندما مات السيد ولزمت هي الفراش، ما عادت الغرفة الصباحية تستخدم، ولهذا تعين على آل أوڤرمانتل أن يرحلوا. وماذا يفعلون غير ذلك؟ لا طعام ولا نار. البرد قارس في تلك الغرفة شتاء».

سألتها أرييتي «وماذا عن آل هارپسكورد؟»

بدت هوملي مستغرقة في التفكير وقالت «كانوا مختلفين. لا أقول إنهم متعجرفون أيضًا، لأنهم كانوا كذلك. خالتك لوبِي التي تزوجت خالك هندريري كانت من آل هارپسكورد بالمصاهرة وكلنا نعرف المظاهر التي تدعيها».

قال پود «هيا يا هوملي...»

«ليس لها الحق في ذلك. فهي ليست إلا من آل رَين پايپ [مزراب] قبل أن تتزوج من هارپسكورد».

سألتها أرييتي «ألم تتزوج الخال هندريري؟»

«نعم، فيما بعد. كانت أرملة لها ولدان وهو أرمل وله ثلاثة

أولاد. لا داعي إلى أن تنظر إليّ هذه النظرة يا پود. لا تنكر أنها أتعبت المسكين هندريري، فقد ظنت أن الزواج بأحد أفراد آل كلوك خسارة».

سألت أرييتي «لماذا؟»

«لأننا آل كلوك نعيش تحت المطبخ، هذا هو السبب. لأننا لا نتكلم اللغة المنمقة ولا نأكل شرائح الخبز مع الأنشوجة. ولكن سكنانا تحت المطبخ لا تعني أننا لسنا متعلمين. إن آل كلوك عائلة عريقة شأنها كشأن آل هارپسكورد. تذكري ذلك يا أرييتي، ولا تسمحي لأي أحد بأن يخبرك بسوى ذلك. جدك يستطيع أن يكتب ويعد حتى الرقم... ما الرقم يا پود؟»

«خمسة وسبعون».

«اسمعي، خمسة وسبعون! وأبوك يحسن العد كما تعرفين يا أرييتي، يحسن العد وكتابة الأرقام، أكثر وأكثر إلى أكبر الأرقام. ما الرقم يا پود؟»

«يناهز الألف».

«اسمعي! ويعرف الحروف لأنه علمك يا أرييتي، صحيح؟ ولولا أن بدأ الاقتراض في سن باكرة لتعلم القراءة، صحيح يا پود؟ تعيَّن على أبيك وخالك هندريري الخروج للاقتراض في عمر الثالثة عشرة، في مثل عمرك يا أرييتي، تخيلي!»

قالت أرييتي «لكني أود...»

فتابعت هوملي كلامها منقطعة الأنفاس «فلم يعرف رغد عيشك. ولأن آل هارپسكورد سكنوا في غرفة الاستقبال -انتقلوا إليها عام ١٨٣٧ إلى حفرة في تلبيسة الجدار خلف موضع البِيان القيثاري، إن كان ثمة واحد، وأشك في ذلك- وكانوا أسرة تدعى لنن پرس [مكواة البياضات] أو شيء من هذا القبيل وغيروه إلى هارپسكورد...»

سألت أرييتي «وعلام اعتاشوا في غرفة الاستقبال؟»

«شاي العصر. لا شيء إلا شاي العصر. لا عجب أن الأولاد أصبحوا شاحبي الوجوه. لا شك أن الحال في الأيام الخوالي كانت أحسن، من كعك المفن والفطائر وغيرها، والكيك اللذيذ الدسم والمُربَّيات والهلام. ويتذكر واحد من كبار آل هارپسكورد شراب مخيض الحليب ذات مساء. ولكن تعين عليهم أن ينجزوا اقتراضهم في عجالة، يا لهم من مساكين. في الأيام المطيرة عندما يقضي البشر العصرية بطولها في غرفة الاستقبال، يُجلب الشاي ويرفع دون أن تتسنى فرصة لآل هارپسكورد في الاقتراب منه، وفي أيام الصحو يؤخذ إلى الحديقة. قالت لي لوپي إنهم أحيانًا عاشوا أيامًا وأيامًا على الفتات وعلى ماء الزهريات. لذا لا يمكن للمرء أن يقسو عليهم. كانت الراحة الوحيدة للمساكين أن يتبجحوا قليلًا ويتكلموا كالسيدات والرجال المحترمين. هل سمعت الخالة لوپي تتكلم يومًا؟»

«نعم. لا. لا أذكر».

«أوه، لا بد أنك سمعتها تقول «باركيه» -هذا هو الشيء الذي صنعت منه أرضية غرفة الاستقبال- تقول «باركي... بارررركي». آه، كان جميلًا. حين أتذكر الأمر، أجد أن خالتك لوبي أشدهم تعجرفًا...»

قال پود «أريبتي ترتجف. لم نوقظ الفتاة الصغيرة لنتكلم عن الخالة لوبي».

قالت هوملي وقد بدا عليها الندم فجأة «ولن نفعل. كان عليك أن تسكتني يا پود. اسمعي يا صغيرتي، ضعي هذا اللحاف حولك وسأجلب لك قطرة من الحساء الساخن جدًّا!»

قال پود عندما هرعت هوملي إلى الموقد وغرفت الحساء في فنجان الشاي «ومع ذلك فعلنا بصورة ما».

سألته هوملي «وماذا فعلنا؟»

«أيقظناها لنتكلم عن الخالة لوبي. الخالة لوبي والخال هندريري و..» صمت ثم استأنف كلامه «وإغلتينا».

«دعها تشرب حساءها أولًا».

«لا داعي إلى أن تتوقف عن الشرب».

# الفصل السادس

قال پود «أيقظناك أنا وأمك لنكلمك عن الطابق الأعلى».

نظرت إليه أريتي من فوق الفنجان الكبير وهي تحمله بكلتا يديها.

سعل پود «قلت قبل قليل إن السماء بنية داكنة فيها شقوق. حسن، إنها ليست كذلك»، ونظر إليها كأنه يتهمها «إنها زرقاء».

«أعرف».

«تعرفين؟!»

«نعم أعرف بلا شك، فعندي منفذ شبكي».

«أترين السماء منه؟»

قاطعته هوملي «واصل كلامك، أخبرها عن البوابات».

قال پود متفكرًا «ماذا ترين إن خرجت من هذه الغرفة؟»

«ممرًّا مظلمًا».

«وماذا أيضًا؟»

«غرفًا أخرى».

«وإن تقدمت قليلًا؟»

«مزيدًا من الممرات».

«وإن واصلت السير، في كل الممرات تحت الأرض مهما انعطفت وتلوت، ماذا تجدين؟»

«بوابات».

«بوابات قوية. بوابات لا يسعك فتحها. لأي شيء وضعت؟»

«لصد الفئران؟»

وافقها بود مشككًا، كأنه يعطيها نصف درجة «نعم. لكن الفئران لا تؤذي أحدًا. ماذا أيضًا؟»

«الجرذان؟»

«ليس عندنا جرذان. ماذا عن القطط؟»

رددت أرييتي مدهوشة «قطط؟»

«أو لمنعك من الخروج؟»

رددت أرييتي مذعورة «منعي من الخروج؟»

قال بود «الطابق الأعلى مكان خطر. وأنتِ يا أرييتي ابنتنا الوحيدة، أتفهمين؟ أما هندريري فأمره مختلف، إذ عنده ابنان من

صلبه وثلاثة من زوجته. كان لهندريري ثلاثة أبناء ذات يوم، ثلاثة أبناء من صلبه».

قالت هوملي «أبوك يقصد إغلتينا».

«نعم، إغلتينا. لم يحدثاها قط عن الطابق الأعلى، ولم يكن لديهم منفذ شبكي. قالا لها إن السماء مدقوقة بمسامير، وفيها شقوق...»

غمغمت هوملي ونشقت قليلًا ولمست شعر أرييتي «أسلوب غبي في تربية الطفل».

قال پود «لكن إغلتينا ليست بالغبية، فهي لم تصدقهما». وأردف قائلًا «وذات يوم ذهبت إلى الطابق الأعلى لترى بنفسها».

سألت أرييتي وقد غلبها الحماس «وكيف خرجت؟»

«لم يكن عندنا بوابات كثيرة يومها. بوابة واحدة فقط تحت الساعة. لا شك أن هندريري قد تركها بلا إقفال أو ما شابه. المهم أن إغلتينا خرجت...»

قالت هوملي «وهي تلبس ثوبًا أزرق، وحذاء له أزرار صنعه والدك من أجلها، من جلد العجل الأصفر وأزراره خرزات سوداء. كان حذاء جميلًا».

«لو حدث هذا في وقت آخر لكان الأمر على ما يرام، ولخرجت وطافت بالمكان وخافت قليلًا، ثم عادت أدراجها؛ من غير أن تصاب بأذًى ومن غير أن تعرف أكثر...»

قالت هوملي «لكن الأشياء تحدث».

«أجل. لم تعرف قط، فهما لم يخبراها، أن أباها قد «شوهد» وأن أهل الطابق الأعلى جلبوا قطًّا و...»

«انتظروا أسبوعًا، وانتظروا شهرًا، وراودهم الأمل طوال سنة ولكن أحدًا لم يرَ إغلتينا بعدها».

قال پود بعد صمت وهو يعاين أرييتي «وهذا ما جرى لإغلتينا».

ساد الصمت إلا من صوت أنفاس پود وفوران الحساء.

قالت هوملي في نهاية المطاف «لقد انفطر قلب خالك هندريري. لم يذهب إلى الطابق الأعلى بعدها، إلا إذا وجد الحذاء كما قال. لم يكن أمامهم إلا الرحيل».

صمتت أرييتي قليلًا، ثم رفعت رأسها وسألت «لماذا تخبراني؟ الآن؟ في هذه الليلة؟»

نهضت هوملي، وسارت بلا ارتياح نحو الموقد وقالت «لم نكلمك عن الأمر قط، أو لم نحدثك عنه كثيرًا. ولكننا شعرنا الليلة»، واستدارت فجأة «سنصارحك بالأمر: لقد «شوهد» والدك يا أرييتي!»

«أوه، ومن رآه؟»

«شيء لم تسمعي عنه قط. لكن هذا ليس مهمًّا، المهم...»

«تظنان أنهم سيجلبون قطًّا؟»

«ربما».

أنزلت أريبتي حساءها قليلًا، وحملقت إلى داخل الكوب الموضوع إلى جوارها على الأرض ويبلغ حد ركبتها. كان في وجهها المُطرِق شيء حالم وسري، ثم تجرأت على القول بهدوء شديد «ألا يمكننا الرحيل؟»

شهقت هوملي وشبَّكت يديها ومالت ناحية الجدار، وقالت توجه حديثها إلى مقلاة معلقة هناك «أنتِ لا تعرفين عمَّا تتكلمين. ديدان وبنات عرس وبرد ورطوبة و...»

سألت أريبتي بصوت متهدج «ولكن تخيلا أني خرجت مثل إغلتينا، وأكلني القط. ستضطران أنت وبابا إلى الرحيل، صحيح؟ أليس كذلك؟»

واندفعت هوملي من جديد، ولكنها هذه المرة اتجهت نحو أريبتي، وارتسمت على وجهها علامات الغيظ «سأصفعك يا أريبتي كلوك، إن لم تحسني الأدب هذه اللحظة!»

امتلأت عينا أريبتي بالدموع وقالت «كنت أفكر فقط أنني أحب الذهاب، أن أرحل أنا الأخرى. دون أن أُؤكل». أضافت بهدوء وقد انهمرت دموعها.

قال پود «حسن، هذا يكفي! اذهبي إلى الفراش يا أريبتي دون أن تُؤكلي ولا تُضربي، وسنتكلم في الأمر صباحًا».

صرخت أريبتي غاضبة «هذا لا يعني أني خائفة، فأنا أحب

القطط. وأراهنكما أن القطة لم تأكل إغلتينا. أراهنكما أنها هربت لأنها كرهت الحبس... يومًا بعد يوم... وأسبوعًا تلو أسبوع... وعامًا بعد عام... مثلي أنا!»، أردفت وهي تنشج.

رددت هوملي قولها مدهوشة «الحبس!»

دفنت أرييتي وجهها في يديها وقالت شاهقة «البوابات. بوابات، بوابات، بوابات...»

تبادل پود وهوملي النظرات من فوق كتفي أرييتي المحنيتين، فقال حزينًا «ما كان عليك أن تفتحي هذا الحديث... ليس في وقت متأخر من الليل...»

رفعت أرييتي وجهها الذي لطخه الدمع وقالت باكية «سيان إن كان الوقت مبكرًا أو متأخرًا. أوه، أعرف أن بابا مقترض رائع. أعرف أننا تمكنا من البقاء عندما رحل الآخرون. ولكن أي نفع عاد بهذا علينا في النهاية؟ لا أظن من الذكاء عيشنا هنا وحدنا، دائمًا وأبدًا في بيت شبه فارغ تحت الأرض، دون أن نجد من نكلمه أو نلعب معه، من دون أي شيء يُرى إلا الغبار والممرات، ولا ضوء إلا نور الشموع ووهج النار وما يتسلل من الشقوق. لإغلتينا أشقاء وإخوة غير أشقاء، ولها فأر مروض، وعندها حذاء أصفر ذو أزرار سوداء، وخرجت إغلتينا.. مرة واحدة فحسب!»

قال پود برفق «إششش، لا ترفعي صوتك». صرّت ألواح

الأرضية فوق رؤوسهم وعلا وقع أقدام ثقيلة جيئة وذهابًا عمدًا. سمعوا صوت السيدة درايفر الخشن وقعقعة محراك النار. وسمعوها تقول «اللعنة على هذا الموقد. الريح شرقية من جديد»، ثم سمعوها ترفع صوتها وتنادي «كرامفيرل!»

جلس پود يحملق إلى الأرض كئيب البال، وارتجفت أرييتي وأحكمت لفّ اللحاف المنسوج حولها وأخذت هوملي نفَسًا طويلًا بطيئًا. ورفعت رأسها فجأة وقالت بحزم «الطفلة على حق».

اتسعت عينا أرييتي وقالت «أوه، لا...». صعقت أنها على حق، فالآباء هم المحقون لا الأبناء. أدركت أرييتي أن الأبناء يقولون أي شيء، ويفرحون بقوله، لأنهم موقنون دائمًا أنهم سيكونون في مأمن ومخطئين.

واصلت هوملي كلامها «ها أنت ترى يا پود أن عيشنا كان مختلفًا، فقد كان في البيت عائلات أخرى وأطفال آخرون... آل سنك [حوض المغسلة] في ملحق المطبخ، أتذكرهم؟ وأولئك الناس الذين سكنوا خلف مِشحذة السكاكين، يغيب اسمهم عن ذهني الآن. وأولاد آل بروم كبرد [خزانة المقشات]. وذلك الممر تحت الأرض الممتد من الإسطبل، تعرفه، الذي عاش فيه آل رين پايپس. كنا نتمتع بقدر أكبر من الحرية إن جاز القول».

«أجل صحيح، بصورة ما. ولكن فيمَ تنفعك الحرية؟ أين هم الآن؟»، ونظر إليها متشككًا.

احتدت هوملي بقولها «لن أعجب إن تحسنت أحوال بعضهم. لقد تغيرت الحال في البيت بكامله. لم تعد الاختيارات كسابق حالها. فثمة من ذهب عندما حفروا حفرة من أجل أنابيب الغاز كما تذكر. في الحقول وعبر الغابة وغيرها. منحهم ذلك ضربًا من الأنفاق، تمتد حتى لايتن بزرد».

قال پود بفظاظة «وما الذي وجدوه هناك؟ جبل من فحم الكوك!»

أدارت هوملي وجهها، وقالت بالصوت الحازم نفسه «لنقُل يا أرييتي إنه ذات يوم -ولنختَر يومًا مميزًا عندما يكون المكان خاليًا، وبعد التأكد من أنهم لا يجلبون قطًّا ولديَّ ما يدفعني إلى القول إنهم لن يفعلوا- لنقل إن أباك أخذك ذات يوم معه للاقتراض، ستكونين فتاة مطيعة، صحيح؟ تفعلين ما يقوله لك بسرعة ولا تجادلينه؟»

توردت أرييتي وشبكت يديها، وقالت بصوت ملؤه الجذل «أوه»، لكن پود تدخل سريعًا:

«كلا يا هوملي، يجب أن نفكر. لا يمكنك أن تقولي شيئًا من غير تقليبه جيدًا. تذكري أنني «شوهدت». ليس هذا بالوقت المناسب لأخذ الطفلة إلى الأعلى».

«لن يكون هناك قط. لم نسمع خرمشة، والأمر مختلف عما حدث زمن روزا پكهاتشت».

قال پود مشككًا «الأمر سيانِ. الخطر قائم. لم أسمع قط بفتاة تذهب للاقتراض من قبل».

«أما أنا فأقول، وقد أدركت الأمر الآن فحسب، لو كان لك ولد لأخذته معك للاقتراض، ألن تفعل؟ طيب، ليس لك ولد إلا أرييتي. لنقل إن مكروهًا حدث لك أو لي، فماذا ستفعل أرييتي إن لم تتعلم الاقتراض؟»

حملق پود إلى ركبتيه وقال بعد دقيقة «أجل. أفهم ما تقصدينه».

«وسيبث هذا فيها الحماس ويجعلها تقلع عن شوقها».

«شوقها إلى أي شيء؟»

«إلى السماء الزرقاء والعشب وما شابه». حبست أرييتي أنفاسها واستدارت هوملي نحوها بسرعة «لا فائدة يا أرييتي، أنا لن أرحل، لا من أجلك ولا من أجل أي أحد!»

قال پود وقد أخذ يضحك «آه، هذا هو المغزى إذن!»

قالت هوملي في ضيق ونظرت إلى السقف بسرعة «إششش. لا ترفع صوتك! قبّلي أباك يا أرييتي»، ثم أردفت في عجالة «وأسرعي إلى فراشك».

عندما تدثرت أرييتي بالأغطية شعرت بوهج من السعادة يصعد من أصابع قدميها، كوهج الدفء. سمعت صوتيهما يعلوان وينخفضان في الغرفة المجاورة، فتكلمت هوملي وتكلمت، واثقة ثابتة، وشعرت أرييتي بشيء من القناعة خلف ذلك، لقد كان

صوت الفوز. وسمعت نهوض پود وصرير الكرسي، وسمعت پود يقول «لا يعجبني هذا!». وسمعت هوملي تهمس «هشش!»، فعلى ألواح الأرضية في الأعلى وقع أقدام مضطربة وارتطام مفاجئ للقدور.

نظرت أرييتي والنعاس يغالبها إلى رسمة سقفها، التي كتب على راياتها بفخر «فلور دي هاڤانا... غارانتزادوس... سوپيريورز... نون پلس ألترا... إسكويسيتوس...»(*)، والسيدات الشفيفات الجميلات ينفخن في آلات الترومبيت، صامتات ظافرات، في أنغامِ حبور بلا صوت...

---

(*) زهرة هاڤانا... مضمونة... فاخرة... لا يضاهيها شيء... طريفة...

# الفصل السابع

كانت أريتي «مطيعة» تمامًا طوال الأسابيع الثلاثة التالية، فقد ساعدت أمها في ترتيب غرف المخزن، وكنست الممرات وشطفتها وسوّتها، وفرزت الخرزات (التي يستخدمونها أزرارًا) وصنفتها في زجاجات الأسبرين ذات الأغطية اللولبية، وقصت قفازات قديمة من جلد العجل إلى مربعات ليصنع منها پود الأحذية، وبَرَدَت حسك السمك حتى صار إبرًا حادة كإبر النحل، ونشرت الغسيل ليجف عند المنفذ الشبكي ليهب عليه الهواء الناعم، ثم حلَّ اليوم الموعود أخيرًا -اليوم الرهيب الرائع الذي لا يُنسى- عندما كانت هوملي تنظف طاولة المطبخ، واعتدلت ونادت «پود!»

خرج من مشغله واقترب منها أخيرًا.

قالت له هوملي «انظر إلى هذه الفرشاة!». كانت فرشاة من الألياف ظهرها خيوط مجدولة.

«أجل، لقد بليت».

«كلما فركت فيها آلمتني براجمي».

ارتسم القلق على وجه پود. فمنذ أن «شوهد» وهو لا يقترض إلا من المطبخ، وأشياء ضرورية تمامًا كالوقود والطعام. تحت موقد المطبخ في الطابق الأعلى جحر فئران قديم، يُزلِق منه پود المتاع بدلًا من حمله بعد انطفاء نار الموقد أو انخفاضها في الليل. ومنذ حادثة ستارة النافذة سدوا جحر الفئران بخزانة أدراج صنعت من علبة الثقاب، ووضعوا مقعدًا خشبيًّا على الخزانة، وتعلم پود بمساعدة ودفع كبيرين من هوملي أن ينحشر في المزلق إلى الأعلى بدلًا من الذهاب إلى الأسفل. وهكذا لم يحتَج إلى المجازفة بالذهاب إلى البهو الكبير أو الممرات، فليس عليه إلا أن يهرع خارجًا من تحت الموقد الأسود الواسع في المطبخ ليجلب كبش قرنفل أو جزرة أو قطعة لذيذة من اللحم. لكنه ليس بالأمر السهل، وإن كانت النار خامدة، فكثيرًا ما كان تحت الموقد رماد ساخن وجمر، ومرة عندما خرج، اقتربت منه فرشاة كبيرة تمسك بها السيدة درايڤر، فتزحلق إلى الوراء فوق هوملي، محترقًا مرتجفًا ساعلًا الغبار. ومرة أخرى، ولسبب ما، كانت النار في كامل توهجها ووصل پود فجأة تحت جحيم مستعر يتساقط منها فحم وهّاج. لكن النار عادة تخمد أثناء الليل، فيشق پود طريقه بين الجمرات إلى المطبخ بلا عناء.

واصلت هوملي كلامها «السيدة درايڤر في الخارج، هذا يوم إجازتها. وهي..» -كانا يشيران إلى العمة صوفي بقولهما «هي»- «وهي في مأمن في فراشها».

«ليس هذا ما يقلقني».

احتدت هوملي قائلة «يا للهول، ألا يزال الولد هناك؟»

«لا أدري، الخطر وارد دائمًا».

«وسيظل واردًا، مثلما حدث عندما كنت في قبو الفحم وجاءت عربة الفحم».

«لكني دائمًا أعرف مكان الأخريين، أعني هي والسيدة درايڤر».

«ولهذا فالولد آمن، لأنك تسمع الولد من مسافة ميل». ثم واصلت كلامها بعد دقيقة «اطمئن. ولكن لا تتكلم عن الأخطار ...»

تنهد پود وذهب لإحضار حقيبة الاقتراض قائلًا «طيب».

نادته هوملي «خذ الطفلة».

فاستدار پود وقال بصوت خائف «الآن يا هوملي؟»

سألته هوملي محتدّة «ولم لا؟ إنه يوم مناسب. لن تذهبا إلى أبعد من الباب الأمامي. إن كنت متوترًا فاتركها إلى جانب الساعة، جاهزة للإسراع نحو الأسفل والانزلاق في الجحر. دعها ترى على أي حال. أرييتي!»

جاءت أرييتي تركض، فحاول پود من جديد واعترض قائلًا «اسمعيني الآن يا هوملي».

تجاهلته هوملي وقالت مبتهجة «أتحبين مرافقة أبيك واقتراض فرشاة ألياف من حصيرة الباب في البهو يا أرييتي؟»

قفزت أرييتي قفزة صغيرة وصاحت «أوه، هل أستطيع؟»

«اخلعي مئزرك وغيِّري حذاءك. ستحتاجين حذاء أخف من أجل الاقتراض... الأفضل أن تلبسي حذاء جلد العجل الأحمر»، وذهبت أرييتي فالتفتت هوملي إلى پود وقالت «ستكون على ما يرام، وسترى».

أخذ قلب أرييتي ينبض نبضًا أسرع وهي تتبع أباها في الممر. لقد رأت أن الأمر يفوق احتمالها وقد حانت اللحظة. وشعرت بالخفة والارتجاف والجوع من الحماس.

كانا يحملان ثلاث حقائب للاقتراض (وشرح لها پود السبب قائلًا «تحسبًا أن نجد شيئًا. المقترض الرديء يضيّع فرصًا كثيرة لأنه لا يحمل حقيبة إضافية»)، وأنزل الحقائب ليفتح البوابة الأولى، التي كان مزلاجها مشبكًا كبيرًا محكم الإغلاق يصعب أن تفتحه يدان صغيرتان، وراقبت أرييتي أباها يعلّق ثقله بالقضيب وارتفعت قدماه عن الأرض. نقل ثقله، وهو معلق بيديه، من المشبك إلى رأسه المنحوت، وعندما تحرك ارتد المشبك وانفتح وقفز متحررًا في اللحظة نفسها. قال وهو ينفض يديه «ما كنتِ لتستطيعي فعل ذلك، فأنت خفيفة جدًّا. ولا أمك تستطيع. هيا بنا. بهدوء...»

ثمة بوابات أخرى تركها پود مفتوحة (وقال يشرح لها هامسًا «لا تغلقي بوابة في طريق خروجك، فقد تحتاجين إلى العودة سريعًا»)، ثم رأت أرييتي ضوءًا خافتًا في نهاية الممر، فشدت كمّ والدها وهمست «أهذا هو؟»

وقف پود في مكانه وقال لها محذرًا «اهدئي. أجل هذا هو، الثقب تحت الساعة!» قال هذه الكلمات، فانحبست أنفاس أرييتي، لكنها لم تظهر أية علامة على ذلك. واصل پود كلامه قائلًا «يجب ارتقاء ثلاث عتبات إليه، وهي عالية جدًّا فانتبهي إلى خطواتك. عندما تصبحين تحت الساعة ابقي في مكانك، ولا تسرحي بخيالك وأبقي نظرك عليَّ، إن كان البر أمانًا، فسأشير لك».

كانت العتبات عالية وغير مستوية قليلًا لكن أرييتي ارتقتها برشاقة أكثر من پود. بعدما تسلقت متجاوزة الأطراف الخشنة للحفرة لمحت لمحة خاطفة مبهرة لذهب مصهور؛ إنه نور الشمس الربيعية على الحجارة الفاتحة لأرضية البهو. لم تعد قادرة على رؤية هذا في وقوفها منتصبة القامة، بل رأت ظلالًا شبيهة بظلال الكهف في الخزانة الكبيرة فوقها والشكل الكامد لأوزان معلقة. وتماشت الظلمة الجوفاء حولها مع الصوت؛ كان صوتًا مأمونًا موثوقًا منتظمًا، وأعلى رأسها بعيدًا رأت حركات الرقاص الذي التمع في شبه الضوء، نائيًا وحذرًا في تأرجحه الإيقاعي. شعرت أرييتي بحرارة الدموع تحت جفنيها وبشيء من الزهو والفخر؛ هذه إذن هي الساعة أخيرًا!... ساعتهم... الساعة التي سُميت بها عائلتها! لقد وضعت هنا مئتي عام، خفيضة الصوت صابرة تحرس عتبة بيتهم، وتضبط وقتهم.

لكنها رأت أن پود وقف منحنيًا تحت الممر المقوس المنقوش مقابل الضوء. قال لها «لا تبعدي ناظريك عني»، فانحنت أرييتي هي

الأخرى. رأت الأرض الذهبية الحجرية اللامعة للبهو تمتد بعيدًا، ورأت أطراف البُسط كأنها جزر زاهية الألوان في بحر مصهور، ورأت في بهاء نور الشمس -كبوابة إلى أرض جنيات حلمت بها- البابَ الأمامي المفتوح. ورأت وراءه العشب، ومقابل السماء الصافية الساطعة أشجارًا مورقة متمايلة. جال پود بعينيه في المكان وقال هامسًا «انتظري وراقبي»، ثم اختفى في لمح البصر. رأته أرييتي يجري على الأرضية المشمسة. ركض في سرعة -كما تجري الفأرة أو ورقة شجر يابسة تذروها الرياح- ورأته فجأة «صغيرًا». لكنها قالت لنفسها «ليس صغيرًا، بل أطول من أمي بنصف رأس...». راقبته يجري حول جزيرة حصيرة الباب ذات اللون الكستنائي إلى الظل جوارَ الباب. وهنالك اختفى.

راقبت أريتي وانتظرت. كان كل شيء ساكنًا إلا من دوران مفاجئ في الساعة. كان دورانًا طاحنًا، في التجويف المظلم العلوي فوق رأسها، ثم الصرير المنزلق لمعدن منزوع أمام الساعة غنى ترنيمتها. دقت ثلاث نغمات متأنية رخيمة، كأنها تقول «شئت أم أبيت، هذا هو الوقت...»

سمعت حركة مفاجئة قرب العتبة المعتمة للباب الأمامي وها قد عاد پود، حاملًا حقيبته في يده قرب الحصيرة التي ارتفع وبرها حد الركبة أمامه كأنه حقل من حبات الكستناء. رأته أريتي ينظر نحو الساعة ثم رأته يرفع يده.

آه يا لدفء البلاطات الحجرية وهي تجري فوقها... يا لنور

الشمس البهيج على وجهها ويديها... يا للفراغ الرهيب فوقها وحولها! أمسك بها پود وحملها أخيرًا وربّت على كتفها قائلًا «اهدئي اهدئي... التقطي أنفاسك... فتاة مطيعة!»

حدقت أرييتي إلى ما حولها وهي تلهث قليلًا. رأت أرجل كراسي كبيرة تنتصب في نور الشمس، ورأت الجوانب الداخلية المظلمة لمقاعدها تمتد فوقها كأنها مظلات، ورأت المسامير والأحزمة والرقع الغريبة من الحرير والخيوط، ورأت السلالم جروفًا مدرّجة، تعلو على مبعدة، أعلى وأعلى... ورأت أرجل طاولة محفورة ومغارة تحت الصندوق. وطوال الوقت في أثناء السكون تكلمت الساعة وهي تضبط الثواني وتنشر طبقاتها من الهدوء.

وعندها استدارت أرييتي ونظرت إلى الحديقة. رأت ممرًّا مفروشًا بالحصى، مليئًا بالحجارة الملونة، في حجم ثمار الجوز، وبينها يتناثر العشب هنا وهناك، أخضر شفافًا في ضوء الشمس. ورأت وراء الدرب أيكة معشبة تعلو بشدة إلى وشيع متشابك، وخلف الوشيع رأت أشجار الفاكهة، زاهية بالزهور.

قال پود بصوت هامس أجشّ «الأفضل أن نشرع في العمل».

أطاعت أرييتي وأخذت تقلع الألياف، كانت قاسية يملؤها الغبار. عمل پود برشاقة ونظام، صانعًا حُزمًا صغيرة وضع كلًّا منها في الحقيبة على الفور. وقال يشرح لها «لن تَودي أن تتركي شيئًا خلفك إن اضطررت إلى الهرب فجأة».

«إنها تؤلم يديك، أليس كذلك؟»، وعطست فجأة.

«لا تؤلم يديَّ، فقد اخشوشنتا»، وعطست أرييتي من جديد.

«مغبرة صحيح؟»

اعتدل پود وقال وهو يراقبها «لا جدوى من اقتلاع المعقودة. لا عجب أنها تؤلم يديك. انظري إليَّ»، ثم قال «دعي عنك ذلك! إنها أول مرة لك. اجلسي على العتبة وانظري إلى ناحية الباب».

قالت أرييتي «آه، لا» (وقالت في نفسها إذا لم أساعده فلن يجلبني ثانية)، لكن پود أصر عليها.

«أحسن العمل أكثر إن كنت بمفردي، فأختار ما أريد، إن كنت تفهمين ما أعني، ما دمت أنا الذي سيصنع الفرشاة».

مكتبة ياسمين

# الفصل الثامن

كانت العتبة دافئة لكنها شاهقة. قالت أريتي لنفسها إن نزلت إلى الدرب فقد لا أتمكن من الصعود ثانية، ولذا جلست أرييتي بعض الوقت بهدوء. ثم انتبهت إلى مكشطة الوحل.

ناداها پود بهدوء «أين ذهبت يا أرييتي؟»

«لقد نزلت على مكشطة الوحل».

فجاء ونظر إليها من أعلى العتبة، وقال بعد دقيقة تحديق «لا بأس، ولكن لا تنزلي على أي شيء ليس ثابتًا. ماذا لو جاء أحدهم وحرك المكشطة، أين ستكونين عندها؟ وكيف ستصعدين مجددًا؟»

«إنها ثقيلة على النقل».

«ربما. ولكن يمكن نقلها، أتفهمين ما أعني؟ ثمة قواعد عليك تعلمها يا فتاتي».

«هذا الدرب يدور حول البيت، والأيكة أيضًا».

«طيب، وماذا في ذلك؟»

دعكت أرييتي فردة حذائها المصنوع من جلد العجل الأحمر على حجر مدور وأوضحت «منفذي الشبكي. حسبت أنه عند الزاوية، فهو يطل على هذه الأيكة».

«منفذك الشبكي؟ ومنذ متى صار منفذك الشبكي؟»

«خطر لي أن أنعطف عند الزاوية وأنادي على أمي من المنفذ».

«كلا. لن نفعل شيئًا من هذا. لن ننعطف عند الزوايا».

«كي ترى أنني بخير».

قال پود وابتسم نصف ابتسامة «طيب، اذهبي سريعًا وناديها. سأراقبك من هنا. احرصي على ألا ترفعي صوتك!»

ركضت أرييتي. كانت أحجار الدرب محكمة التراكب ولم يكد حذاؤها الخفيف اللين يمسها. يا لروعة الجري -لا يسعك أن تركض تحت الأرض، بل تمشي وتتوقف وتزحف- لكنك لا تجري أبدًا. كادت أرييتي تتجاوز المنفذ الشبكي. فرأته لحظة انعطافها إلى الزاوية. أجل ها هو قريب جدًّا من الأرض مخفي جيدًا في حائط البيت القديم، وتحته طحالب في بقعة ممتدة مائلة للخضرة.

ركضت أرييتي إليه ونادت وهي تضع أنفها على الحديد المشبك «أمي! أمي»، وانتظرت بهدوء، ثم نادت من جديد.

جاءت هوملي عند النداء الثالث. كان شعرها متهدلًا وتحمل الغطاء اللولبي، كأنه ثقيل، لعلبة مخلل مليء بالماء والصابون. وقالت

في صوت منزعج «أوه، لقد أوقعت قلبي! ماذا تظنين أنك فاعلة؟ أين أبوك؟»

أمالت أريتي رأسها جانبًا وقالت «هناك، عند الباب الأمامي!» كانت تطفر سعادة، ورقّصت أصابع قدميها على الطحلب الأخضر، بعيدًا عن ناظري هوملي. هنا كانت على الجانب الآخر من المنفذ الشبكي -ها هي أخيرًا في الخارج- تنظر إلى الداخل!

«أجل، إنهم يفتحون الباب هكذا، في أول أيام الربيع. عودي أدراجك إلى أبيك، وأخبريه بأنني لن أرفض قليلًا من ورق النشاف الأحمر، إن كان باب الغرفة الصباحية مفتوحًا. ابتعدي عن طريقي الآن، أريد سكب الماء!»

قالت أريتي في نفسها وهي تجري عائدة إلى أبيها هذا سبب نمو الطحالب، بسبب الماء الذي نفرغه من المنفذ الشبكي...

ارتسم الارتياح على وجه پود عندما رآها ثم قطب جبينه عند سماع الرسالة «كيف تنتظر مني تسلق ذلك المكتب دون دبوسي؟ ورق التنشيف يعني تسلق ستارة وكرسي وهي تعرف ذلك. هيا الآن! اصعدي!»

توسلت إليه أريتي «دعني أبقى في الأسفل قليلًا بعدُ، حتى تنتهي. كلهم في الخارج عداها، هذا ما قالته أمي».

تذمر پود «إنها تقول أي كلام عندما تريد شيئًا على وجه السرعة. كيف تعرف أنها [العمة صوفي] لن يخطر لها النهوض من

فراشها والنزول متوكئة على عصًا؟ كيف تعرف أن السيدة درايڤر لم تمكث في البيت اليوم لأنها تعاني من الصداع؟ كيف تعرف أن الولد ليس هنا؟»

«أي ولد؟»

أصاب الحرج پود فردد على نحو غامض «أي ولد؟»، ثم أردف يقول «أو كرامفيرل..»

«كرامفيرل ليس بولد».

«كلا، إنه ليس ولدًا، إن صح التعبير. كلا»، وواصل كلامه كأنه يفكر بصوت عالٍ «كلا، لن تسمي كرامفيرل بالولد. ليس ولدًا تمامًا إن شئت القول. طيب»، قال وقد أخذ يبتعد «ابقي قليلًا إن شئت، ولكن لا تبتعدي!»

رأته أرييتي يبتعد عن العتبة ثم أجالت نظرها فيما حولها. أوه يا للبهاء! أوه يا للفرح! أوه يا للحرية! نور الشمس والعشب والهواء الناعم المهفهف ومنتصف الطريق نحو الأيكة حيث التفت عند الزاوية، شجرة كرز مزهرة! تحتها على الدرب بقعة من بتلات مائلة إلى الزهري وعند أسفل الشجرة، جمع من زهور الربيع الفاتحة بلون الزبدة.

نظرت أرييتي نظرة حذرة إلى عتبة الباب الأمامي ثم ركضت رشيقة راقصة في حذائها الناعم الأحمر نحو البتلات، كانت ملتفة كالقواقع واهتزت عندما لمستها. جمعت عددًا منها وأدخلت الواحدة

منها في قلب الأخرى... أعلى فأعلى... مثل قلعة من أوراق اللعب. ثم نثرتها. جاء پود إلى العتبة ونظر إلى الدرب وقال بعد لحظة «لا تبتعدي». رأت شفتيه تتحركان، فابتسمت له، لقد كانت بعيدة جدًّا ولا تسمع كلماته.

جاءت نحوها من بين الحجارة خنفساء خضراء تلمع في نور الشمس. فوضعت أرييتي يديها على قشرتها برفق وتوقفت منتظرة مترقبة، وبعدما أبعدت يدها تحركت الخنفساء بسرعة. وجاءت نملة مسرعة مشغولة في خط متعرج. فرقصت أمامها لتغيظها ومدت قدمها. فنظرت إليها النملة حائرة تلوح بمجساتها ثم انصرفت عنها كأنها تعبت. ونزل طائران إلى العشب الواقع تحت الشجرة يتشاجران بأصوات حادة. فطار أحدهما مبتعدًا لكن أرييتي رأت الآخر بين سيقان العشب فوقها عند المنحدر. فتقدمت حذرة نحو الأيكة وتسلقت بشيء من التوتر بين أوراق العشب. عندما فرقتها بيدها المجردة برفق، انتثرت على تنورتها قطرات من الماء وشعرت بأن حذاءها الأحمر أصابه البلل. لكنها تقدمت، ترفع نفسها بين الحين والحين على سيقان متجذرة في دغل الطحالب وغابة البنفسج وأوراق البرسيم المعترشة. كانت نصال العشب التي تبدو حادة وتبلغ حد خصرها، رقيقة على اللمس وارتدت إلى الوراء خلفها بعد عبورها. وعندما وصلت إلى أسفل الشجرة أخيرًا، فزع عصفور وطار فجلست مسرعة على ورقة زهرة ربيع مجعدة. كان الهواء مضمخًا بالشذى، وخطر لها ألا شيء سيلاعب الهواء ورأت

شقوق زهرة الربيع وثلمها تحمل قطرات صافية من الندى. وإن ضغطت الورقة تدحرجت القطرات كالكرات الزجاجية. كانت الأيكة دافئة، شديدة الدفء في ظل الأعشاب الطويلة، والأرض الرملية يابسة. قطفت زهرة ربيع وهي تقف هناك، وكانت الساق الزهرية رقيقة ونابضة بالحياة في يدها، وتغطيها شعيرات فضية، وعندما حملت الزهرة كالمظلة بين عينيها والسماء، رأت نور الشمس الشاحب من خلال البتلات المعروقة. وعلى قطعة من اللحاء وجدت قملة خشب فضربتها بزهرتها المتمايلة. فالتفَّت من فورها وصارت كرة تتدحرج بهدوء أسفل التل بين جذور العشب. لكنها تعرف قمل الخشب، ففي البيت تحت الأرض الكثير منه. ودائمًا ما توبخها هوملي إذا لعبت معه لأنها تقول إن رائحته كرائحة السكاكين القديمة. استلقت بين سيقان زهور الربيع وصنعت لها مبتردًا بينها وبين الشمس، ثم تنهدت وأدارت رأسها ونظرت إلى جانبي الأيكة بين سيقان العشب. حبست أنفاسها مدهوشة. فقد تحرك شيء فوقها على الضفة، والتمع شيء. حدقت أرييتي.

# الفصل التاسع

كانت عينًا، أو شيئًا يشبه العين، صافية ولامعة لها لون السماء، عينًا تشبه عينها لكنها كبيرة محملقة. اعتدلت أرييتي وقد انقطعت أنفاسها خوفًا، وطرفت العين. نزلت حاشية من الرموش المقوسة وعلت من جديد بعيدًا عن نظرها. فحركت أرييتي ساقيها محترسة، ستتسلل بلا صوت بين سيقان العشب وتتزحلق آخر الأيكة.

قال صوت «لا تتحركي!»، والصوت، شأنه كشأن العين، كان كبيرًا، لكنه خافت نوعًا ما ومبحوح مثل هبّة ريح خلال نافذة مشبّكة في ليلة عاصفة من ليالي مارس.

تمسمرت أرييتي في مكانها. فقالت في نفسها لقد قُضي الأمر إذن، وقعت أفظع الأشياء وأشدها رهبة؛ لقد «شوهدت»! وما حدث لإغلتينا، مهما كان، سيحدث لي من غير ريب!

خيم الصمت وسمعت أرييتي، التي تسمع خبط قلبها في

أذنيها، النَّفس يُسحب مجددًا في الرئتين الواسعتين، وقال الصوت ولم يزل هامسًا «أو سأضربك بعصاي».

هدأت أريتي فجأة وسألت «لماذا؟» كم كان صوتها غريبًا! رن صوتها رفيعًا صافيًا، هادئًا كصليل زهرة الجُريس في الهواء.

ثم رد الصوت هامسًا «تحسُّبًا أن تركضي نحوي، بسرعة في العشب... تحسُّبًا»، واصل الكلام وهو يتهدج قليلًا «أن تخمشيني بيديك الصغيرتين القذرتين».

حدقت أريتي إلى العين، وحافظت على هدوئها، وسألت مجددًا «لماذا»، ومرة أخرى رنت الكلمة، وبدت باردة كالثلج هذه المرة، وحادة كالإبرة.

قال الصوت «هذا ما تفعله الأشياء، رأيتها في الهند».

تذكرت أريتي كتابها أطلس العالم ونبهته قائلة «أنت لست في الهند الآن».

«هل خرجت من البيت؟»

«نعم».

«من أي مكان في البيت؟»

حدجت أريتي العينَ وقالت في النهاية بجسارة «لن أخبرك».

«سأضربك بعصاي إذن!»

«لا بأس، اضربني!»

«سأحملك وأقسمك إلى نصفين!»

فنهضت أرييتي وقالت «لا بأس»، وتراجعت خطوتين.

سمعت شهقة حادة ووقع زلزال في العشب، فاستدار عنها واعتدل، في جبل كبير يلبس القماش الأخضر. كان له شعر مسترسل فاتح اللون وأهداب ذهبية، وصاح عليها: «ابقي في مكانك!»

حدقت إليه أرييتي. هذا هو «الولد» إذن! كانت لاهثة ورشيقة بفعل الخوف، ثم قالت وهي تشهق «حسبتك في التاسعة».

احمر وجهه ونظر إليها من علٍ وهو يتنفس بقوة «طيب، أنت مخطئة. أنا في العاشرة. كم عمرك؟»

قالت وهي تراقبه «أربعة عشر عامًا. في يونيو القادم».

ساد الصمت وانتظرت أرييتي وهي ترتجف قليلًا. فقال الولد في النهاية «هل تحسنين القراءة؟»

«قطعًا. ألا تحسنها؟»

فقال متلعثمًا «بلى. نعم. أعني أني وصلت من الهند قبل وقت قصير».

«وما شأن هذا بذاك؟»

«إن ولدت في الهند، فهذا يعني أني ثنائي اللغة، وإن كنت كذلك، فهذا يعني أني لا أحسن القراءة. لا أتقنها جيدًا».

رفعت أريبتي نظرها إليه وقالت في نفسها يا له من وحش داكن أمام السماء.

«هل يزول هذا الأمر عندما تكبر؟»

تحرك قليلًا وشعرت بالخطفة الباردة لظله.

«أوه نعم يزول. أصاب هذا الأمر أخواتي، وزال عنهن. بل إنهن قادرات على قراءة أي كتاب من الكتب في حجرة الدرس في الأعلى».

قالت أريبتي بسرعة «وأنا كذلك، إذا ما أمسكها لي أحد وقلب لي الصفحات. أنا لست ثنائية اللغة، بل أقرأ أي شيء».

«هل تحسنين القراءة الجهرية؟»

«بلا شك».

«هلَّا انتظرت ريثما أصعد إلى الطابق العلوي وأجلب كتابًا؟»

قالت أريبتي وهي تتحرق شوقًا إلى التباهي «حسن»، ثم امتلأت عينيها ذعرًا وقالت متلعثمة «أوه...»

قال الولد وهو يقف، وبات ينظر إليها من علٍ: «ما الأمر؟»

ضيقت عينيها وهي تنظر إليه عاليًا أمام ضوء الشمس وقالت «كم بابًا لهذا البيت؟»

فجثا على إحدى ركبتيه وقال «أبواب؟ أبواب خارجية؟»

«نعم».

«لدينا الباب الأمامي والباب الخلفي، وباب غرفة السلاح وباب المطبخ، وباب ملحق المطبخ.... والنوافذ الطويلة في غرفة الاستقبال».

«أبي في البهو كما تعلم، قرب الباب الأمامي، يعمل. و... ولن يرغب في أي إزعاج».

«يعمل؟ في أي شيء؟»

«يجمع المواد لصنع فرشاة لدعك الأرضية».

«سأدخل من الباب الجانبي إذن»، وبدأ يبتعد ثم استدار فجأة وعاد إليها. وقف لحظة كأنه محرج ثم قال «هل تستطيعين الطيران؟»

قالت أريبتي مدهوشة «كلا، وأنت؟»

ازداد وجهه حمرة، وقال غاضبًا «لا طبعًا، فأنا لست جنية!»

«ولا أنا. ولا أي أحد. أنا لا أصدق بوجودها».

فنظر إليها نظرة غريبة وقال «ألا تصدقين بوجودها؟»

«نعم. وأنت؟»

«وأنا لا أصدقه قطعًا!»

حدثت نفسها يا له من ولد شديد الغضب حقًّا. وقالت وهي تحاول استرضاءه «أمي تصدق بوجودها، وتظن أنها رأت واحدة ذات مرة. حدث هذا في صباها أثناء عيشها مع والديها خلف ركام الرمل في سقيفة الصلصال».

جلس مقرفصًا وشعرت بأنفاسه على وجهها، فسأل «وكيف شكلها؟»

«بطول اليراعة لها جناحان كالفراشة، ولها وجه صغير ضئيل، كما قالت، مضيئة وتتحرك كالشرر ولها يدان متحركتان صغيرتان. وقالت إن وجهها ظل يتغير طوال الوقت، يبتسم ويلتمع. وقالت إنها تكلمت بسرعة شديدة، لكنها لم تسمع منها كلمة».

قال الولد باهتمام «آه. أين ذهبت؟»

«اختفت. عندما رأتها أمي، وقعت في شباك عنكبوت. كان المكان مظلمًا عندئذ، قرابة الساعة الخامسة من مساء شتوي، بعد الشاي».

قال مجددًا «آه»، وقطف بتلتين من زهرة الكرز طواهما كالشطيرة وأكلهما متأنيًا. وقال وهو ينظر إلى حائط البيت خلفها «لنقل إنك رأيت رجلًا صغيرًا، طوله طول قلم الرصاص، على بنطاله رقعة زرقاء، يتسلق ستارة نافذة، ويحمل فنجان دمية، فهل تقولين إنه جني؟»

«كلا، سأقول إنه أبي».

قال الولد وهو يفكر «أوه، هل على بنطال أبيك رقعة زرقاء؟»

«ليس على أحسن سراويله، بل على بنطال الاقتراض».

قال الولد ثانية «أوه»، كأنه يجد في هذا صوتًا مأمونًا كما يفعل المحامون. «هل أمثالكم كثيرون؟»

«كلا. لا أحد. نحن مختلفون».

«أعني أنهم صغار في حجمكم؟»

ضحكت أريبتي وقالت «لا تكن سخيفًا! لا شك أنك تظن أن في العالم أناسًا كثيرين في مثل حجمك؟»

فرد قائلًا «إنهم أكثر ممن هم في حجمك».

قالت أريبتي مستسلمة وضحكت من جديد «صدقًا... هل تظن... أعني أي عالم هذا؟ تلك الكراسي الكبيرة... لقد رأيتها. تخيل أن عليك صنع كراسي بهذا الحجم لكل الناس، والقماش من أجل ثيابهم؟ أميال وأميال... أروقة منه... وخياطة الثياب! وبيوتهم الكبيرة التي ترتفع عاليًا حتى لا تكاد ترى السقف... أسرّتهم الكبيرة... الطعام الذي يأكلونه...، جبال مدخنة كبيرة، أوعية هائلة من اليخنة والحساء وغيرها».

«ألا تأكلون الحساء؟»

«بل نأكله طبعًا. لأبي عم لديه قارب صغير يجذف فيه في قدر المرق ويلتقط الحطام العائم. كما أنه يصطاد من الأعماق باحثًا عن قطع من نخاع العظم حتى بدأ الشك يساور الطاهي عندما وجد المشابك المثنية في المرق. وكاد مرة أن يتحطم قاربه على قطعة مغمورة من عظم الظنبوب. وخسر مجذافيه وانخرق القارب، فرمى حبلًا من فوق مقبض القدر وأخرج نفسه من فوق الحافة. يا لهول أعماق المرق! ويا لحجم قدر المرق! أعني لن يبقى في العالم طعام

كافٍ يقيتنا عمّا قريب! ولهذا يقول أبي إن موتهم لأمر حسن... يقول أبي، نحتاج القليل فقط ليقيتنا. وإلا فإن الأمر...»، ترددت أريتي وهي تحاول تذكر الكلمة «وإلا فإن الأمر وخيم، كما يقول...»

«ماذا تقصدين بقولك «يقيتنا»؟»

# الفصل العاشر

فحكت له أرييتي عن الاقتراض؛ عن صعوبته وخطورته. وأخبرته بأمر المخزن تحت الأرض، وعن أعمال پود الفذة الأولى، وعن براعته وشجاعته، ووصفت أيامًا من الماضي البعيد، قبل مولدها، عندما كان پود وهوملي ثريين، ووصفت علبة النشوق الموسيقية، وعن الذهب المخرم والعصفور الصغير الذي يخرج منها المصنوع من ريش طائر الرفراف، وأنه يصفق بجناحيه ويغني أغنيته، ووصفت صوان الدمية والكؤوس الخضر الصغيرة، وإبريق الشاي الفضي الصغير من خزانة غرفة الاستقبال، والأغطية من قماش الأطلس والملاءات المطرزة... وقالت له «ما زلنا نحتفظ بها، إنها مناديلها [العمة]». وأدرك الصبي شيئًا فشيئًا أن الضمير «ها» عائد على عمته الكبرى صوفي ساكنة الطابق العلوي، وعرف كيف يقترض پود من غرفتها وهو يشق طريقه -على ضوء النار- بين الحلي المتروكة على طاولة زينتها، بل يتسلق ستائر سريرها ويمشي على لحافها. وكيف تراقبه وتكلمه أحيانًا، لأنهم يجلبون لها كل يوم

عند الساعة السادسة دورقًا من نبيذ ماديرا العتيق الفاخر الفاتح، كما قالت أرييتي، وأنها تشرب كثيرًا منه قبل انتصاف الليل. لم يلمها أحد على ذلك، حتى هوملي، فليس لها من المباهج إلا قليل، تلك المسكينة، كما تقول هوملي. لكن أرييتي ذكرت أن العمة الكبيرة صوفي لا تصدق أي شيء تراه بعد أن تفرغ في جوفها كأسها الثالثة. وقالت أرييتي «وهي تظن أبي يخرج من الدورق، وسيأخذني إلى هناك ذات يوم عندما أكبر وستظنني أخرج من الدورق أنا أيضًا. يرى أبي أن هذا سيدخِل السرور إلى نفسها، فقد اعتادت رؤيته. اصطحب أمي مرة فمدَّت عنقها وظلت تسأل أبي لماذا لم تعد أمي تأتي وتقول إنهم خففوا النبيذ بالماء لأنها رأت مرة رجلًا وامرأة صغيرين، لكنها لا ترى الآن إلا رجلًا صغيرًا...»

قال الولد «ليتها ظنت أني أخرج من الدورق. إنها تعطيني دروسًا في الإملاء وتعلمني الكتابة. لا أراها إلا صباحًا عندما تكون شكسة المزاج. وترسل في طلبي وتنظر من خلف أذنيَّ وتسأل السيدة د. إن كنت تعلمت الكلمات».

سألته أرييتي «وكيف تبدو السيدة د.؟» (يا لروعة تسميتها بالسيدة د. هكذا... فهو يوحي باللامبالاة والجسارة!)

«إنها بدينة لها شارب وتحممني وتؤذي الكدمات على جلدي ومرفقي المتورم(*) وتقول إنها ستضربني ذات يوم...» شد الولد حزمة من العشب وحملق إليها غاضبًا، ورأت أرييتي شفته ترتعش.

---

(*) الولد مصاب بالحمى الرثية، والكدمات وتورم المفاصل من أعراضها.

وقال «أمي لطيفة جدًّا، إنها تعيش في الهند. ما سبب خسارتكم لكل ثروتكم؟»

«انفجر سخان الماء في المطبخ وانهمر الماء الساخن وتسرب من الأرضية إلى بيتنا وانجرف كل شيء وتكوم أمام المنفذ الشبكي. عمل أبي ليلًا ونهارًا، وهو يشعر بالحر تارة وبالبرد تارة، محاولًا إنقاذ المتاع. وهبَّ تيار هوائي رهيب في مارس من خلال المنفذ الشبكي، فأصابه المرض ولم يعد قادرًا على الذهاب للاقتراض. فتعين على خالي هندريري أن يفعل ذلك ومعه واحد أو اثنان آخران، وأعطتهم أمي الأشياء شيئًا فشيئًا مقابل تجشمهم العناء. لكن الماء أتلف طائر الرفراف، وتساقطت ريشاته، وبرز من جانبه نابض دائري كبير. استخدم أبي النابض لصد التيارات الهوائية القادمة من المنفذ الشبكي وزيّنت أمي قبعة من فراء الخُلد بالريش. ثم وُلدت وعاد أبي إلى الاقتراض. لكنه يتعب ولا يحب الستائر، ولا سيما عند إزاحة الكرات...»

«ساعدته قليلًا في حمل فنجان الشاي. كانت أوصاله ترتعد. أظنه كان خائفًا».

قالت أرييتي غاضبة «أبي خائف؟! خائف منك؟»

«لعله لا يحب المرتفعات».

«بل يحب المرتفعات. لا يحب الستائر، أخبرتك بذلك. الستائر تتعبه».

أقعى الولد متفكرًا، وهو يلوك ساق عشب وقال بعد هنيهة «اقتراض. أهكذا تسمونه؟»

«وماذا نسميه سوى ذلك؟»

«أسميه سرقة».

ضحكت أرييتي، وضحكت كثيرًا. وأوضحت له «نحن المقترضين مثلكم أنتم أيها البشور أو أيًّا كان جنسكم. نحن جزء من البيت. لعلك ستقول إن المصطلى يسرق الفحم من الوعاء».

«ما السرقة إذن؟»

ارتسم الجد على وجه أرييتي فقالت «لنقل إن خالي هندريري اقترض ساعة زمردية من طاولة زينتها وأخذها أبي وعلقها على جدار. هذه هي السرقة».

«ساعة زمردية!»

«لقد قلت ذلك لأن لدينا واحدة معلقة على جدار بيتنا، لكن أبي اقترضها بنفسه. لا أعني الساعة حصرًا، فقد تكون أي شيء. بل حتى مكعب السكر. لكن المقترضين لا يسرقون».

«إلا من البشور».

انفجرت أرييتي ضاحكة، وأسرفت في الضحك حتى أخفت وجهها في زهور الربيع، وشهقت والدمع يملأ عينيها وقالت «يا إلهي! إنك ظريف!» ورفعت نظرها إلى وجهه الحيران «البشور

للمقترضين، كالخبز للزبدة!» صمت الولد مدة، وهزت تنهيدة الريح شجرةَ الكرز وارتجفت بين زهورها.

قال الولد في النهاية وهو يراقب البتلات المتساقطة «لا أصدق ذلك، لا أصدق أن هذه مهمتنا، ولا أصدق أننا ننقرض!»

قالت أرييتي نافدة الصبر ناظرة إلى ذقنه «يا إلهي! شغّل عقلك، أنت البشوري الوحيد الذي رأيته في حياتي (وإن كنت لا أعرف إلا ثلاثة آخرين: كرامفيرل و«هي» والسيدة درايڤر). لكنني أعرف كثيرًا من المقترضين: آل أوڤرمانتل وآل هارپسكورد وآل رين بارل وآل لينن پرس وآل بوت راك وآل الموقر جون ستدنغتن و...»

فنظر إليها من علٍ وقال «جون ستدنغتن؟ ولكنه عمنا الأكبر ...»

«سكنت هذه العائلة خلف الصورة»، وواصلت أرييتي كلامها وهي لا تكاد تصغي: «وآل ستوڤ پايپ وآل بِل پُل و...»

قاطعها قائلًا «أجل، ولكن هل رأيتهم؟»

«رأيت آل هارپسكورد. وأمي من عائلة بِل پُل. أما الآخرون فعاشوا قبل مولدي».

اقترب أكثر وقال «وأين هم الآن؟ أخبريني».

قالت أرييتي ببرود وهي تتراجع بعيدًا عن وجهه العابس الذي لاحظت أنه مغطى بوبر ذهبي فاتح «يسكن خالي هندريري في الريف، وله خمسة أبناء، من آل هارپسكورد وآل كلوك».

«ولكن أين الآخرون؟»

«في مكان ما»، وتساءلت أين يقع هذا المكان؟ وارتجفت قليلًا في ظل الولد البارد المخيم عليها مائلًا على العشب.

تراجع مجددًا ورأسه الجميل يحجب قطعة كبيرة من السماء. وقال بعد هنيهة متأنيًا بعينين باردتين «لم أرَ إلا اثنين من المقترضين لكني رأيت مئات ومئات ومئات...»

همست أريتي «أو لا...»

قال «من بني البشور»، واعتدل في جلسته.

تمسمرت أريتي في مكانها ولم تنظر إليه، ثم قالت «لا أصدقك».

«حسنًا، سأخبرك...»

«لن أصدقك».

«اسمعي!» وحكى لها عن محطات القطار ومباريات كرة القدم وحلبات السباق والمواكب الملكية والحفلات الموسيقية في قاعة ألبرت الملكية. وحكى لها عن الهند والصين وأمريكا الشمالية والكومنولث البريطاني. وحكى لها عن تخفيضات يوليو. وقال «ليس المئات، بل الآلاف والملايين والمليارات والترليونات من الناس الكبار الضخام الجسام. هل تصدقينني الآن؟»

نظرت إليه أريتي بعينين مذعورتين، وتخشب عنقها وهمست «لا أدري».

تابع كلامه وهو يقترب أكثر «أما أنت، فأنا لا أصدق أن في أي مكان من العالم مقترضين آخرين. أظنكم آخر ثلاثة».

أطرقت أرييتي برأسها بين أزهار الربيع «كلا. هناك الخال هندريري والخالة لوبي وكل الأنسباء».

«أراهنك أنهم ميتون. والأدهى أن أحدًا لن يصدق أني رأيتكم. ستكونين الأخيرة لأنك الأصغر»، وأردف مبتسمًا ابتسامة المنتصر «وذات يوم ستكونين المقترضة الوحيدة في العالم!»

جلس ساكنًا ينتظر، لكنها لم تنظر إليه، فقال بعد هنيهة «ها قد بدأت تبكين».

قالت أرييتي بصوت مخنوق «ليسوا ميتين»، كانت تتحسس في جيبها بحثًا عن منديل. «بل يعيشون في جحر غرير على مبعدة حقلين، وراء الأجمة. ولا نراهم لأن بيتهم بعيد جدًّا، وهناك نُموس وأشياء وأبقار وثعالب... وغربان...»

«أية أجمة؟»

قالت أرييتي بصوت كالصراخ «لا أدري! إنها إلى جوار أنبوب الغاز، حقل يسمى پاركن بك [غدير پاركن]». نفرت أنفها وقالت «سأعود إلى البيت».

«لا تذهبي، ليس بعدُ».

«بلى سأذهب».

تورد وجهه وقال متوسلًا «دعيني أحضر الكتاب».

«لن أقرأ لك الآن».

«ولم لا؟»

نظرت إليه بعينين غاضبتين.

«لأنك...»

«اسمعي، سأذهب إلى ذلك الحقل. سأذهب للبحث عن خالك هندريري، والأقرباء، والخالة لا أدري ما اسمها. وسأعلِمك إن كانوا أحياء. ما رأيك في هذا؟ يمكنك أن تكتبي لهم رسالة وسأضعها داخل الحفرة...»

حدجته أرييتي وقالت شاهقة «حقًّا؟»

«نعم سأفعل. سأفعل صدقًا. هل أذهب الآن وأحضر الكتاب؟ سأدخل من الباب الجانبي».

قالت أرييتي شاردة الذهن وعيناها تلمعان «حسنًا. متى يمكنني إعطاؤك الرسالة؟»

قال من علٍ: «في أي وقت. أين مسكنك في البيت؟»

بدأت أرييتي بالقول «حسنًا...» ثم توقفت. لماذا تشعر بالبرد من جديد؟ أهذا بسبب ظله... يمتد فوقها ويحجب عنها الشمس؟ فقالت في عجالة «سأضعها في مكان ما. سأضعها تحت حصيرة البهو».

«أية حصيرة؟ التي إلى جوار الباب الأمامي؟»

«نعم هذه».

ذهب، فوقفت هناك بمفردها في ضوء الشمس، يغطيها العشب حتى كتفيها. ما حدث هائل ولا بد لها أن تفكر فيه؛ فقد شعرت بأنها غير قادرة على تصديق وقوع الأمر حقًّا؛ فهي لم «تشاهَد» فحسب، بل كُلّمت أيضًا، ولم تُكلَّم فحسب، بل...

قال صوت «أريبتي!»

وقفت مفزوعة ودارت؛ ها هو پود، قمري الوجه واقف على الدرب ينظر إليها، فهمس «هيا بنا!»

نظرت إليه لحظة كأنها لم تعرفه، يا لوجهه المدوّر، يا للطفه وألفته!

قال ثانية بإلحاح أكبر «هيا!»، وتسللت نحوه مبتعدة عن الأجمة طائعة لأنه بدا قلقًا، وهي تسوّي أزهار الربيع، فقال لها محتدًّا بعدما وقفت إلى جانبه على الدرب «دعي عنك ذلك. لا يمكنك سحب الزهور الكبيرة؛ عليك أن تحملي حقيبة. ما الذي دفعك إلى المجيء إلى هنا؟»، وغمغم وهما يمشيان بين الحجارة «ربما ما كنت لأراك بعد اليوم. أسرعي الآن. ستعد أمك الشاي وتنتظرنا!»

# الفصل الحادي عشر

كانت هوملي واقفة عند البوابة الأخيرة لاستقبالهما. لقد سرحت شعرها وفاحت منها رائحة صابون قطران الفحم، وبدت أصغر عمرًا وأكثر حماسة. وما فتئت تقول «طيب! طيب!» وهي تأخذ الحقيبة من أرييتي وتساعد پود في إغلاق البوابة. «هل كان الأمر جميلًا؟ هل كنت فتاة مطيعة؟ هل شجرة الكرز موجودة؟ هل دقت الساعة؟» حاولت في الضوء الخافت قراءة ملامح أرييتي «هلمَّا. الشاي جاهز. أعطني يدك...»

كان الشاي جاهزًا حقًّا، موضوعًا على الطاولة المدورة في غرفة الجلوس والنار المتوهجة مشتعلة في الدولاب المسنن. كانت الغرفة أنيسة وكنينة، ولكن فجأة وعلى نحو غريب، خفق ضوء النار على ورق الجدران، على السطر الذي كتب فيه «... سيكون الأمر آسرًا جدًّا لو»، وتساءلت أرييتي دائمًا لو ماذا؟ وقالت في نفسها لو كان بيتنا أقل عتمة لكان هذا آسرًا. نظرت إلى الغموس المحضر منزليًّا في دبابيس الرسم المقلوبة التي وضعتها هوملي لتكون حوامل

للشموع بين عدة الشاي، والإبريق القديم المصنوع من عفصة بلوط(*) مجوفة، وفوهته شوكة وله مقبض سلكي، وقد بات لامعًا قاسيًا بمرور الزمن، وثمرتا كستناء مشويتان ومقطعتان يأكلونها كشرائح الخبز مع الزبدة والكستناء المسلوقة الباردة التي يقطعها پود كالخبز، وطبق من الزبيب المجفف الحار، وقد انتفش أمام النار، وفتات الخبز بالقرفة، مقرمش ذهبي مرشوش عليه قليل من السكر، وأمام كل طبق، آه، تحفة التحف، قريدس موضوع في قدر. أخرجت هوملي الأواني الفضية، طبقا الفلورين لها ولأرييتي، ونصف الكراون لپود(**)، وقالت وهي ترفع إبريق الشاي «تعالي يا أرييتي إذا غسلت يديك. لا تبدئي بأحلامك!»

سحبت أرييتي بكرة خيط قطني وجلست عليها ببطء. راقبت أمها وهي تفتح فوهة الإبريق، لطالما كانت هذه لحظة مثيرة. يكون الطرف السميك من الشوكة داخل الإبريق، سحبة خفيفة قبل الصب تجعله ينحصر في الفوهة فلا يرشح الشاي. وإذا ما ظهر أثر للرطوبة في القرن، كما يحدث أحيانًا، فهذا يعني وجوب الشد بقوة أكبر والتدوير اللطيف السريع. قالت هوملي وهي تصب بحذر «إذن؟ أخبرينا بما رأيت!»

---

(*) شجرة من البلوط تحمل سنة بلوطًا وسنة عفْصًا، وهو دواء قابض مجفف يردّ المواد المنصبّة ويشد الأعضاء الرخوة الضعيفة، وإذا نُقع في الخل سوَّد الشعر. (القاموس المحيط)

(**) تستخدم هوملي القطع النقدية أطباقًا فاخرة تقدم بها الطعام إلى عائلتها، والفلورين عملة هولندية، ونصف الكراون عملة قيمتها نصف شلن.

قال پود وهو يقطع لنفسه شريحة من الكستناء المسلوقة ليأكله مع قريدسه «لم ترَ الكثير».

«ألم ترَ رف المدفأة؟»

«نعم، لم ندخل الغرفة الصباحية».

«وماذا عن ورق التنشيف؟»

«لم أحصل عليه».

«ولكنه جميل...»

قال پود وهو يمضغ بهدوء «ربما، ولكن انتابني شعور منه».

قالت أرييتي «وما ذاك الشعور؟»

«في أعلى مؤخرة رأسه وفي أصابعه. إنه شعور ينتاب أباك عندما...»، وخفضت صوتها «يكون في المكان أحد».

قالت أرييتي وانكمشت على نفسها «أوه».

«ولهذا أعدتها إلى البيت».

فسألت هوملي قلقة «وهل رأيت أحدًا؟»

قضم پود لقمة من القريدس «لا بد، لكنني لم أرَ شيئًا».

مالت هوملي على الطاولة وقالت «هل انتابك أي شعور يا أرييتي؟»

«أوه، وهل نشعر به كلنا؟»

قالت هوملي «ليس في المكان نفسه. يبدأ شعوري في مؤخرة كاحلي ثم يسري في ركبتي. وأمي يبدأ شعورها تحت ذقنها ثم يسري حول عنقها...»

قال پود وهو يلوك «وينعقد من الخلف في ربطة فراشة».

«كلا يا پود. هذه حقيقة، لا داعي إلى السخرية. كل آل بِل پل هكذا. قالت إنه كان كالياقة...»

«مؤسف أنه لم يخنقها».

«كن منصفًا يا پود، إن لها أسبابها».

«أسبابًا! كانت كلها أشواكًا!»

رطبت أرييتي شفتيها ونقلت نظرها بتوتر بين پود وهوملي وقالت «لم أرَ شيئًا».

«ربما كان إنذارًا خاطئًا إذن».

قالت أرييتي «أوه كلا، لم يكن كذلك...» ونظرت إليها هوملي بحدة فتلعثمت قائلة «أعني إذا شعر بابا بشيء... أعني ربما أنا لا ينتابني هذا الشعور».

«أنت صغيرة. ستشعرين به في وقته. اذهبي وقفي في مطبخنا تحت المزلق عندما تكنس السيدة درايڤر الموقد في الأعلى. قفي على مقعد أو شيء ما حتى تكوني شديدة القرب من السقف. وسينتابك الشعور بطول التمرين».

عندما انصرف پود إلى مشغله وهوملي إلى غسل الصحون بعد شرب الشاي، هرعت أرييتي إلى دفتر يومياتها، وقالت لنفسها وهي ترتعد من العجلة سأفتحه على أية صفحة. فانفتح على التاسع والعاشر من يوليو «تكلم عن المعسكر وابقَ في البيت. رايات كاميرونية(*) قديمة في كاتدرائية غلاسكو ١٨٨٥»، هذا ما كتب في صفحة التاسع. أما صفحة العاشر فعنونت بـ«إذا هبت رياحك فاغتنمها. بيعت قمة سنودُن بـ ٥,٧٥٠ جنيهًا، ١٨٨٩». مزقت أرييتي هذه الصفحة، وقلبتها وقرأت على الجانب الآخر منها «١١ يوليو: لا تجعل ما يسرك يتعبك. اجتاز سي. د. غراهام شلالات نياغارا في برميل خشبي عام ١٨٨٦(**)». فقالت لنفسها كلا، سأختار يوم العاشر «إذا هبت رياحك فاغتنمها»، وشطبت على ما كتبته فيها («أمي نكدة المزاج»)، وكتبت تحتها:

(*) جرى ضم الكتيبة السادسة والعشرين (الكاميرونية وهي كتيبة مشاة في الجيش الأسكتلندي، وسميت بهذا نسبة إلى أهل الذمة الأسكتلنديين الذين اتبعوا تعاليم رتشارد كامِيرون) إلى الكتيبة التسعين لتأليف اللواء الأول والثاني من الكاميرونيين أي كتيبة البنادق الأسكتلندية، وتوقفت الكتيبة عن حمل الرايات، وفي التاسع من يوليو عام ١٨٨٥ (التاريخ الوارد في دفتر أرييتي) سلم اللواء الأول (الكتيبة السادسة والعشرين سابقًا) راياته إلى كنيسة غلاسكو، نزولًا عند طلب اللورد پروڤوست.

(**)عرض جزء من قمة جبل سنودُن للبيع واشتراه السير إدورد واتكن. قطع كارلايل د. غراهام جزءًا من شلالات نياغارا في برميل مصنوع من خشب السنديان يبلغ ارتفاعه ١٦٨ سم، واستغرقت رحلته نصف ساعة نجا منها لكنه أصيب بالدوار والغثيان. أتبع رحلته الأولى عددًا من الرحلات كاد في إحداها أن يختنق حتى الموت.

خالي العزيز هندريري

أرجو أنك وأبناءك والخالة لوبي جميعًا في خير حال. نحن هنا في خير، وقد بدأت أتعلم الاقتراض.

ابنة أختك المحبة

أريتي كلوك.

اكتب لي رسالة ردًّا على هذه

قبلاتي

نادتها هوملي من المطبخ «ماذا تفعلين يا أريتي؟»

«أكتب في يومياتي».

قالت هوملي باقتضاب «أوه».

«أتريدين شيئًا؟»

«لاحقًا».

طوت أريتي الرسالة ووضعتها بحذر بين صفحات أطلس توم ثمب، وكتبت في دفتر يومياتها «ذهبت إلى الاقتراض. كتبت إلى هـ. تحدثت إلى و.». ثم جلست أريتي وقتًا طويلًا وهي تحدق إلى النار، وتفكر وتفكر وتفكر...

# الفصل الثاني عشر

ولكن كتابة الرسالة أمر والعثور على وسيلة لوضعها تحت حصيرة الباب أمر آخر. ولأيام عدة لم يستطِع أحد إقناع پود بالذهاب للاقتراض، بل كان ماضيًا في تنظيفه السنوي للمخزن وإصلاح الحواجز وتركيب رفوف جديدة. كانت أرييتي تستمتع عادة بهذا الجرد الربيعي، عندما تخرج إلى النور كنوز شبه منسية وتكتشف استخدامات جديدة لمقترضات قديمة. كانت تحب تقليب قصاصات الحرير أو المخرمات، والقفازات الغريبة المصنوعة من جلد الماعز، وأعقاب أقلام الرصاص، ونصال الأمواس الصدئة ومشابك الشعر وإبر الخياطة، والتين المجفف والبندق، والقطع الناعمة من الشوكولاته، والبقايا القرمزية للأختام الشمعية. صنع لها پود ذات عام مشطًا من فرشاة أسنان، وخاطت لها هوملي بنطالًا واسعًا صغيرًا من إصبعين من أصابع القفاز من أجل «التجول في الصباح». وكان في المخزن بكرات وبكرات من الحرائر والأقطان الملونة وكرات صغيرة مبرقشة من الصوف الغريب، والأسنان

المعدنية لأقلام الحبر التي جعلتها هوملي مغارف للطحين وكثير من أغطية القناني.

لكن أرييتي طافت هذا العام متململة، وتسللت مبتعدة كلما تجرأت على ذلك، للنظر من المنفذ الشبكي، راجية أن ترى الولد. احتفظت بالرسالة معها دائمًا، تدسها في الجيب الأمامي لقميصها وقد انثنت أطرافها. ركض الولد مرة من أمام المنفذ الشبكي ورأت جواربه الصوفية، كان يصدر من حلقه قرقرة كصوت محرك ما، وانعطف عند الزاوية وصرخ صرخة ثاقبة «أوووووو» (قال لها في وقت لاحق إنها صافرة قطار) ولم يسمع نداءها. تسللت ذات مساء بعدما خيم الظلام وحاولت فتح البوابة الأولى، ومهما تأرجحت وشدت المشبك فإنها لم تستطِع فتحه.

كلما كنست هوملي غرفة الجلوس، اشتكت من السجادة قائلة لپود «لن يستغرق الأمر منك أكثر من ربع ساعة، مع دبوسك وشريط القياس، لتجلب لي بعضًا من ورق التنشيف من طاولة الكتابة في الغرفة الصباحية... سيظن من ينظر إلى هذه الأرضية أننا نعيش في جحر ضفدع. لن يقول عني أحد إني موسوسة بمظهر البيت، فلست كذلك وخاصة مع عائلة كعائلتي. لكني أحب المحافظة على «جمال الأشياء الجميلة»». واستسلم پود في نهاية المطاف في اليوم الرابع، فأنزل مطرقته (وهي مقرعة جرس كهربائية صغيرة) وقال لأرييتي «هيا بنا...»

فرحت أرييتي برؤية الغرفة الصباحية، وقد تُرك الباب مواربًا

لحسن الحظ وفُتنت بالوقوف على النسيج المخمّل الثخين للسجادة وهي تنظر إلى الأرفف والأعمدة والجملونات العالية لرف المدفأة الشهيرة. وقالت في نفسها هذا مسكنهم إذن، تلك المخلوقات المحبة للمتعة، نائين ومرحين ومكتفين بذواتهم. تخيلت نساء آل أوڤرمانتل -اللاتي وصفتهن هوملي بـ«الريفيات» قليلًا، ذوات الخصور النحيلة والشعر على الطراز الإدوردي- يتمايلن خليات البال في الخارج على الأعمدة الجدارية رشيقات ضاحكات، ينظرن إلى صورهن في المرآة المركبة التي تظهر فيها علب التبغ والدوارق البلورية ورفوف الكتب والطاولة المغطاة بالمخمل. وتخيلت رجال آل أوڤرمانتل -يقال إنهم وسيمون لهم شوارب طويلة وأيدٍ رشيقة قوية- يدخنون ويشربون ويقصون حكاياتهم الطريفة. لم يدعوا هوملي إلى الصعود قط إذن! مسكينة هوملي بأنفها الناتئ وشعرها الذي يظل مشعثًا... خطر لأرييتي أنهم سينظرون إليها بأعينهم الحسودة نصف الضاحكة، ويبتسمون قليلًا ثم ينصرفون عنها وهم يهمهمون. وقد عاشوا على طعام الإفطار وحده؛ على شرائح الخبز والبيض وقطع صغيرة من الفطر، يأكلون السجق واللحم المقدد المقرمش ويشربون رشفات قليلة من الشاي والقهوة. تساءلت أرييتي أين هم الآن؟ أين ذهبت هذه الكائنات؟

ألقى پود دبوسه فانغرس في مقعدة الكرسي وبات يتسلق الساق لمحَ البصر، وهو يميل بحبله، ثم أخرج الدبوس وألقاه كالرمح فوق رأسه إلى ثنية الستارة. خطر لأرييتي أن اللحظة حانت، فتحسست

رسالتها الغالية. وتسللت إلى البهو، وكان أشد عتمة في هذا الوقت والباب الأمامي مغلق، فعبرته بقلب يخفق خوفًا. كانت الحصيرة ثقيلة، لكنها رفعت طرفها ودست الرسالة تحتها بأن دفعتها بقدمها. قالت «جيد!»، وأجالت نظرها فيما حولها... ظلال، ظلال ودقات الساعة. نقلت نظرها في سهل الأرضية الكبير إلى البعيد حيث ارتفع الدرج، وقالت «عالم آخر في الأعلى. عالم فوق عالم...»، وارتعشت قليلًا.

نادى پود بهدوء من الغرفة الصباحية «أرييتي»، فركضت عائدة في اللحظة المناسبة لتراه يتأرجح بعيدًا عن مقعدة الكرسي ويجر نفسه إلى الأعلى على شريط القياس، موازيًا لطاولة الكتابة. فنزل بخفة مباعدًا قدميه ورأته، لدواعي السلامة، يلف الشريط حول معصمه قليلًا. قال لها بشيء من اللهاث «أردتكِ أن تري هذا». عندما دفع ورق التنشيف، طار إلى الأسفل بهدوء، يسبح بخفة في الهواء ويسقط أخيرًا على مبعدة بضعة أقدام من الطاولة، زهريًا جديدًا، على نسيج المخمل البالي للسجادة.

همس پود «ابدئي بلفه. سأنزل». وجثت أرييتي على ركبتيها وبدأت تلف ورق التنشيف حتى صعب عليها أن تمسكه. وسرعان ما أنهى پود لفه وربطه بشريطه الذي مرر فيه دبوسه وحملا معًا الأسطوانة الطويلة، مثلما يحمل دهّانان سُلَّمًا، تحت الساعة ونزلا في الحفرة.

لم تشكرهما هوملي عندما أنزلا اللفافة في الممر خارج غرفة

الجلوس لاهثين. فقد بدت خائفة وقالت «آه لقد عدتما! حمدًا للرب! الولد في الجوار مجددًا. سمعت السيدة درايڤر تكلم كرامفيرل».

صاحت أرييتي «أوه! وماذا قالت؟»، ونظرت إليها هوملي بحدة ورأت أنها شاحبة. وأدركت أرييتي أنه كان يجدر بها القول «أي ولد؟»، ولكن الأوان فات.

واصلت هوملي كلامها كأنها تطمئنها «لا شيء خطير. إنه ولد يسكن في الأعلى. ليس الأمر بشيء، لكني سمعت السيدة درايڤر تقول إنها ستصفعه، إنْ رفع الحصيرة في البهو مجددًا».

رددت أرييتي «يرفع الحصيرة في البهو!»

«نعم. قالت لكرامفيرل إنه رفع الحصيرة في البهو طوال ثلاثة أيام. وقالت إنها عرفت ذلك من الغبار ومن وضعه لها بعد ذلك. أثار قلقي أمر البهو، لأنك أنت وأبوك... ما الأمر يا أرييتي؟ لا داعي إلى هذه الهيئة! هيا تعالي وساعديني في تحريك الأثاث لنمد السجادة».

قالت أرييتي في نفسها بائسة يا إلهي، يا إلهي، وهي تساعد أمها في إفراغ خزانة الأدراج المصنوعة من علبة الثقاب. لقد بحث طوال ثلاثة أيام ولم يجد شيئًا. سيستلم لليأس الآن... لن يبحث من جديد.

وقفت ذلك المساء ساعات على مقعد تحت المزلق في مطبخهم، متظاهرة بأنها تتمرن على «الشعور» بينما كانت في الحقيقة تتنصت

على أحاديث السيدة درايفر مع كرامفيرل. وما عرفته أن قدمي السيدة درايفر تقتلانها ألمًا وأنها تأسف لأنها لم تترك العمل شهر مايو الماضي، وهل يرغب كرامفيرل بشراب آخر لأن في القبو منه أكثر مما قد يشربه امرؤ في حياته، وإن ظنوا أنها ستنظف نوافذ الطابق الأول بمفردها فعليهم أن يعيدوا النظر. ولكن في الليلة الثالثة، وبينما نزلت أرييتي عن المقعد قبل أن تفقد توازنها إعياءً، سمعت كرامفيرل يقول «إن أردت رأيي، فإني أظنه يربي نمسًا». وعادت أرييتي إلى الصعود من جديد وحبست أنفاسها.

سمعت السيدة درايفر تقول بصوت حاد النبرة «نمس! وماذا سيفعل بعد ذلك؟ أين سيسكنه؟»

قال كرامفيرل بصوته الهادر الخشن «لا أحب أن أقول. كل ما أعرفه أنه كان وراء غدير پاركن، يجول في أنحاء ضفتيه وينادي في جحور الأرانب».

«عجبي! أين كأسك؟»

«جرعة فقط. هذا يكفي. إن هذا الشراب الحلو يذهب إلى كبدك، وليس كالبيرة، فهي لا تنزل هناك. نعم، عندما رآني قادمًا أحمل سلاحًا تظاهر أنه يقطع غصنًا من الوشيع. لكني رأيته وسمعته، ينادي داسًّا أنفه في جحر الأرنب. وفي ظني أن لديه نمسًا». وسمعت صوت تجرّعٍ كأن كرامفيرل يشرب، ثم قال وسمعته أرييتي ينزل كأسه «أجل، نمس يدعى الخال فلان».

تحركت أريبتي حركة سريعة، وتوازنت هنيهة وذراعاها تلوحان، وسقطت عن المقعد. علا الضجيج حين انزلق المقعد جانبًا وارتطم بخزانة الأدراج وانقلب.

فسأل كرامفيرل «ما هذا الصوت؟»

ساد الصمت في الأعلى وحبست أريبتي أنفاسها.

قالت السيدة درايڤر «لم أسمع شيئًا».

«بلى، الصوت آتٍ من تحت الأرضية، هناك قرب الموقد».

«لا شيء. ذلك الفحم يتساقط، يصدر هذا الصوت كثيرًا، ويخيفك إن كنت جالسًا هنا بمفردك... هيا، هات كأسك، ظلت جرعة واحدة، علينا أن نفرغ القنينة...»

قالت أريبتي لنفسها إنهما يشربان نبيذ ماديرا المعتق الفاخر، وعدلت المقعد بحذر شديد ووقفت هادئة قربه تنظر إلى الأعلى. رأت ضوءًا من الشقوق، يخفق بين الحين والحين بظلال عندما يحرك أحدهما يدًا أو ذراعًا.

قال كرامفيرل عائدًا إلى حكايته «نعم، وعندما جئت حاملًا سلاحي قال بكل براءة ليبعدني بلا شك «هل في هذه الأنحاء جحور لحيوان الغرير؟»»

«محتال... يا للأشياء التي يفكر فيها... جحور حيوان الغرير»، وضحكت ضحكة لها صرير.

«الحق أن ثمة واحدًا، وعندما أشرت إليه لم يكترث له، بل وقف هناك منتظرًا مني أن أذهب»، وضحك كرامفيرل «يستطيع اثنان أن يلعبا هذه اللعبة، فجلست، وهنالك وقف كلانا».

«وماذا حدث؟»

«اضطر إلى الذهاب في النهاية، تاركًا نمسه. انتظرت قليلًا، لكنه لم يخرج، فلكزت المكان وصفرت. مؤسف أني لم أسمع جيدًا ما ناداه. كأنه قال الخال فلان»، وسمعت أرييتي صريرًا مفاجئًا من كرسي. فقال كرامفيرل «طيب عليَّ الذهاب الآن وإدخال الدجاجات».

انصفق باب ملحق المطبخ وسُمع ضجيج في الأعلى عندما بدأت السيدة درايڤر تجرف الموقد. أعادت أرييتي المقعد إلى غرفة الجلوس بهدوء، حيث وجدت أمها وحيدة.

# الفصل الثالث عشر

كانت هوملي تكوي وتنحني وتخبط وتدفع شعرها بعيدًا عن عينيها. كانت الثياب الداخلية تملأ أرجاء الغرفة وهي منشورة تتهوّى على المشابك التي جعلت منها هوملي علّاقات للثياب.

سألتها هوملي «ماذا حدث؟ هل وقعت؟»

قالت أرييتي وهي تتجه بهدوء إلى مكانها قرب النار «نعم».

«وكيف الشعور؟»

قالت أرييتي وقد أسندت ذقنها إلى ركبتيها «أوه، لا أدري».

«أين نسيجك؟ لا أدري ماذا أصابك في الآونة الأخيرة، دائمة الكسل. هل أنت متوعكة؟»

«أوه، ليتني كذلك!»

وصمتت هوملي وقالت لنفسها «إنه الربيع. لقد كان يؤثر فيَّ هكذا أحيانًا عندما كنت في مثل عمرها».

أما أرييتي فقد حدثت نفسها وهي تنظر إلى النار بلا هدًى: يجب أن أرى الولد، يجب أن أسمع منه ما حدث، يجب أن أعرف أنهم في خير. لا أريد أن ننقرض، ولا أريد أن أكون آخر المقترضين، لا أريد... ودفنت وجهها بين ركبتيها، أن أعيش هكذا دائمًا وأبدًا... في الظلام... تحت الأرض.

قالت هوملي تكسر الصمت «لا داعي إلى إعداد العشاء، فقد ذهب أبوك للاقتراض. إلى غرفتها، وأنت تعرفين معنى هذا!»

رفعت أرييتي رأسها وهي لا تكاد تصغي وقالت «كلا، ما معنى ذلك؟»

احتدت هوملي «أنه لن يعود إلا بعد ساعة ونصف. يحب المكان هناك، يثرثر معها ويفتش في طاولة الزينة. والمكان أمين جدًّا ما دام الولد قد أوى إلى الفراش. لا يعني هذا أننا نحتاج إلى شيء بعينه، لكنها الأرفف الجديدة التي صنعها، إذ تبدو جرداء كما يقول ولعله يجد شيئًا صغيرًا...»

استقامت أرييتي في جلستها فجأة، وقد خطرت لها فكرة جعلتها تلهث وركبتيها تخوران قليلًا. قالت أمها «بعد ساعة ونصف فقط»، وستنفتح البوابات!

سألت هوملي عندما ذهبت أرييتي نحو الباب «إلى أين تذهبين؟»

قالت أرييتي وهي تظل بيدها رأس الشمعة من الهواء «إلى المخازن فقط، ولن أتأخر».

«إياك أن تبعثري الأشياء! وكوني حذرة وأنت تحملين الشمعة!»

وخطر لأريتي وهي تقطع الممر: هذا صحيح، سأذهب إلى المخازن لأجد دبوس قبعة آخر. وإن وجدته (وقطعة خيط، ولكنها لن تجد شريط قياس) لن أطيل المكوث فعليَّ العودة قبل بابا، وأنا أفعل هذا من أجلهما، قالت لنفسها مراوغة وسيشكرانني ذات يوم. لكنها شعرت بوخز الضمير فقالت «ماكرة» هذا ما ستصفها به السيدة درايفر.

وجدت دبوس قبعة عريض الرأس، وأحكمت ربط قطعة من خيط وهي تلفه إلى الأمام وإلى الخلف كالرقم ثمانية [٨]، وكللت فكرتها بأن ثبتته بختم شمعي.

كانت البوابات مفتوحة وتركت الشمعة وسط الممر تحت الحفرة القريبة من الساعة حتى لا تحدث ضررًا.

كان البهو الكبير معتمًا فيه ظلال عندما خرجت إليه. وصنع لهب القنديل الهادئ بركة ضوء إلى جانب الباب الأمامي المغلق وخفق قنديل آخر على بسطة الدرج في منتصف السلالم. ارتفع السقف في علو وظلمة وليس من حوله إلا الفراغ. وعرفت أن غرفة الأطفال الليلية تقع في نهاية الممر المؤدي إلى الدرج، وسيكون الولد في فراشه، هذا ما قالته أمها قبل قليل.

راقبت أريتي أباها يستخدم دبوسه لصعود الكرسي، ولكن صعود قلبة واحدة من السلالم أسهل منه. إذ صار منظمًا بعد بعض

الوقت: رمي فشدّ فتسلق وتأرجح نحو الأعلى. تلألأت قضبان الدرج ببرود، لكن النسيج المخمّل للسجادة ناعم ودافئ ومغرٍ بالاستلقاء عليه. توقفت في منتصف البسطة لتلتقط أنفاسها. لم تهتم لشبه الظلمة، فقد عاشت في الظلام وألفته وفي وقت كهذا أشعرها الظلام بالأمان.

رأت على البسطة العليا بابًا مفتوحًا ومربعًا كبيرًا من الضوء الذهبي الذي يقطع الممر كأنه حاجز. حدثت أرييتي نفسها، وهي تتصنع الشجاعة فقالت «عليَّ اجتياز ذلك». وداخل الغرفة المضاءة تكلم صوت مثرثرًا، فقال «وهذه الفرس كان لها من العمر خمس سنوات تعود إلى أخي في أيرلندا، ليس أخي الأكبر بل الأصغر، من يملك ستيل ميت وأوه ماي دارلنغ. لقد أدخلها عددًا من سباقات الحواجز... ولكن عندما أقول «عددًا» أعني ثلاثة أو اثنين... هل رأيت يومًا سباقًا أيرلنديًا للحواجز؟»

قال صوت آخر ساهمًا «لا».

ميزته أرييتي مجفلة هذا صوت أبي، إنه يكلم العمة الكبرى صوفي أو الأحرى أن العمة الكبرى صوفي تكلم أبي. أمسكت دبوسها ولفافات الخيط، وركضت إلى الضوء وخلاله إلى الممر الواقع خلفه. ولدى مرورها بالباب المفتوح لمحت نارًا وقنديلًا وأثاثًا يلمع وقماشًا حريريًّا موشى لونه أحمر قانٍ.

أظلم الممر خلف مربع الضوء، ورأت في الطرف البعيد بابًا

مواربًا، فقالت هذه غرفة الأطفال النهارية وبعدها غرفة الأطفال الليلية.

أكمل صوت العمة صوفي قائلًا «ثمة بعض الفوارق التي ستدهشك كثيرًا. مثلًا..» أحبت أريبتي الصوت، فهو مهدئ ورزين، كصوت الساعة في البهو، وعندما اجتازت السجادة إلى شريط الأرضية الملمعة إلى جانب تلبيسة الخشب، أثارها أن تعرف وجود جدران في أيرلندا بدلًا من الوشيع. فقد أمكنها أن تجري بمحاذاة التلبيسة الخشبية وهي تحب الركض. كانت الحركة على السجاد ثقيلة، لأنه سميك ولصيق ويعوق الحركة. أما ألواح الأرضية فناعمة وتفوح منها رائحة شمع النحل، وأحبت الرائحة.

وصلت حجرة الدرس فوجدتها مغطاة بملاءات واقية من الغبار تملؤها الخردة. هنا أيضًا اشتعل لهب قنديل، خُفِّف ضوؤه فبات لهبًا مائلًا إلى الزرقة. كانت الأرضية مشمعة بالية قليلًا والبسط مهترئة. تحت الطاولة غار كبير من الظلام، دخلته وهي تتلمس طريقها واصطدمت بمركع مغبر أعلى من رأسها. خرجت ثانية إلى شبه الضوء، ورفعت نظرها فرأت خزانة الزاوية التي تضم طقم شاي الدمية، واللوحة فوق المدفأة والستارة المخملية التي «شوهد» عليها أبوها مرة. كانت أرجل الكراسي في كل مكان وحجبت رؤيتها مقاعد الكراسي، فوجدت طريقها بينها إلى باب غرفة الأطفال الليلية، وهناك رأت فجأة على لوحة معتمة في الركن البعيد الولد في فراشه. رأت وجهه الكبير، ملتفتًا نحوها على طرف

الوسادة، ورأت صورة لهب القنديل في عينيه المفتوحتين، ورأت يديه تسحبان الغطاء، وتحكمان وضعه على فمه.

توقفت عن الحركة وتمسمرت. وقالت بهدوء بعد وقت حين رأت يديه ترتخيان «لا تخف... هذه أنا، أريبيتي».

وترك الغطاء ينزلق بعيدًا عن فمه وقال وقد بدا مستاء «أريواتي؟»

فرددت برفق «بيتي. هل أخذت الرسالة؟»

ورمقها لحظة دون أن يتفوه بكلمة، ثم قال «لماذا جئت تتزحفين، تتزحفين إلى غرفتي؟»

«لم أتزحف، بل أتيت راكضة. ألا ترى؟»

صمت ينظر إليها بعينيه الكبيرتين المتسعتين. وقال أخيرًا «أحضرتُ الكتاب فذهبتِ».

«اضطررت إلى ذلك، فالشاي جاهز. أخذني أبي».

تفهم هذا وقال أوه بجفاء ولكنه لم يؤنبها.

سألته مجددًا «هل أخذت الرسالة؟»

«أجل. كان عليَّ العودة مرتين. فقد دسستها في جحر الغرير...»

ثم ألقى عنه الغطاء فجأة ووقف في فراشه، ضخمًا في منامته القطنية الفاتحة. حان دور أريبيتي لتخاف هذه المرة، واستدارت نصف استدارة دون أن ترفع عينيها عن وجهه وبدأت تتراجع نحو الباب. لكنه لم ينظر إليها، بل أخذ يتحسس وراء صورة على

الجدار، وقال وهو يعود إلى الجلوس وأصدر السرير صريرًا عاليًا «خذي».

قالت أريتي وقد تقدمت من جديد «لكني لا أريد استعادتها. كان عليك أن تتركها هناك! لماذا أعدتها؟»

فقلبها بين أصابعه وقال «لقد كتب عليها».

صاحت أريتي حماسًا «أوه، أرِها لي من فضلك!» وركضت نحو السرير وسحبت الغطاء المتهدل «إنهم أحياء. هل رأيت الخال هندريري؟»

«لا. كانت الرسالة في الجحر في المكان الذي وضعتها فيه»، ومال نحوها قائلًا «لقد كتب عليها. انظري!»

فانطلقت كالسهم وانتزعت الرسالة من بين أصابعه، وحرصت على أن تبتعد عن مرمى قبضته. وركضت بالرسالة إلى باب حجرة الدرس حيث كان الضوء أسطع قليلًا رغم العتمة. قالت وهي تقرب الرسالة إلى عينيها «الخط فاتح. بمَ كتبها يا ترى؟ كلها مكتوبة بالأحرف الكبيرة»، واستدارت فجأة وسألته «هل أنت متأكد أنك لست من كتبها؟»

«بلا شك. أكتب بأحرف صغيرة...»، فرأت من وجهه أنه يقول الصدق وأخذت تتهجى الحروف «أخـ - بـ - ري (بالمد) أخبري خلاتك»، فنظرت إليه متسائلة «خلاتك؟»

«أجل. «خالتك»».

«أخبري خالتك»، كان الولد صامتًا منتظرًا فقالت «خالتك لو أوه، خالتك لوپي. يقول، اسمع هذا ما يقوله «أخبري خالتك لوپي بأن تعود إلى البيت!»

خيم الصمت ثم قال الولد «أخبريها إذن».

«لكنها ليست هنا، ولم تكن هنا قط! بل إني لا أذكر شكلها!»

قال الولد وهو ينظر إلى الباب «اسمعي، أحدهم قادم!»

تحركت أريبتي بسرعة. لا وقت للاختباء، هذا پود يحمل في يده حقيبة الاقتراض وفي الأخرى دبوسه، ووقف بباب حجرة الدرس. وقف متمسمرًا يحده الضوء المنبعث من الممر، وظله الصغير يسقط معتمًا أمامه. لقد رآها.

قال لها «لقد رأيتك»، كان في كلامه هدوء رهيب «وأنا خارج من غرفتها». بادلته أريبتي النظر، وهي تحشر الرسالة في كنزتها. هل رأى ما خلفها في الغرفة المظلمة؟ هل رأى الشكل المشعث على السرير؟

«لنعد إلى البيت»، وأدار ظهره.

# الفصل الرابع عشر

لم يتفوه پود بكلمة ولا نظر إليها حتى وصلا غرفة الجلوس. كان عليها أن تمشي خلفه بأقصى سرعتها. وتجاهل محاولاتها مساعدته في إغلاق البوابات، وعندما تعثرت انتظرها حتى نهضت وهو يراقبها من غير اهتمام وهي تنفض الغبار عن ركبتيها.

كان العشاء جاهزًا وكي الثياب منتهيًا وجاءت هوملي راكضة من المطبخ، مدهوشة لرؤيتهما معًا.

ألقى پود حقيبة الاقتراض، وحملق إلى زوجته.

تلعثمت هوملي قائلة وهي تنقِّل ناظريها بينهما «ما الأمر؟»

«كانت في غرفة الأطفال الليلية، تكلم الولد!»

تقدمت هوملي، ويداها متشبثتان بمئزرها، وعيناها تتحركان بسرعة وشهقت «أوه لا...»

جلس پود، ومرر يدًا متعبة على عينيه وجبينه، وبدا وجهه ثقيلًا كأنه قطعة من عجين وقال «ماذا نفعل الآن؟»

وقفت هوملي بلا حراك، وانحنت على يديها المتشابكتين ونظرت إلى أرييتي وهمست «أوه، لن...»

قالت أرييتي لنفسها إنهما خائفان، ليسا غاضبين ألبتة، بل خائفين جدًّا جدًّا. فتقدمت وقالت «كل شيء على ما يرام...»

جلست هوملي فجأة على بكرة الخيط القطني وأخذت ترتجف وقالت «أوه، ماذا سنفعل؟» وبدأت تتمايل يمنة ويسرة.

توسلت إليها أرييتي قائلة «أوه كلا يا أمي! الأمر ليس خطيرًا هكذا، حقًّا ما أقول». وتحسست مقدمة كنزتها، ولم تجد الرسالة في بادئ الأمر -فقد انزلقت إلى الخلف- لكنها أخرجتها أخيرًا مجعدة بشدة وقالت «انظري، إنها رسالة من الخال هندريري. كتبت له وأخذ الولد الرسالة...»

قالت هوملي كأنها تكتم صرخة «كتبت له!»، وتأوهت وأغمضت عينيها «أوه، وماذا بعد! ماذا سنفعل؟»، وهوّت على نفسها بيديها النحيلتين مرهقة.

قال پود محتدًّا: «هاتي لأمك شربة ماء يا أرييتي». فجاءت به أرييتي في قشرة بندق مفلوقة؛ قُصّت من جانبها المدبب فباتت شبيهة بكأس البراندي.

قالت هوملي بهدوء أكبر، وهي تضع الكأس الفارغة على الطاولة «ما الذي دعاك إلى فعل أمر كهذا يا أرييتي؟ ماذا دهاك؟»

فأخبرتها أرييتي بأنها «شوهدت» -ذلك الصباح تحت شجرة

الكرز- وأنها أخفت عنهما الأمر لئلا تثير قلقهما، وما قاله الولد عن «الانقراض». والأهم من هذا أن التأكد من أن آل هندريري على قيد الحياة حاجة ملحة. وقالت متوسلة «أتفهمانني؟ افهماني أرجوكما! إني أحاول إنقاذ جنسنا!»

قالت هوملي لپود همسًا بشيء من الفخر «يا لفصاحتها!»

لكن پود لم يصغِ، بل ردد متجهمًا «تنقذين جنسنا! إن أمثالك يا ابنتي ممن يفعلون أشياء متهورة دون احترام للتقاليد، هم من سيقضي علينا نحن المقترضين إلى الأبد. ألا تدركين ما فعلت؟»

رأت أرييتي عينيه المؤنبتين وقالت متلعثمة «بلى. لقد... لقد راسلت مَن بقي على قيد الحياة سوانا»، وأردفت بشجاعة أكبر «حتى نبقى معًا كلنا من اليوم فصاعدًا...»

ردد پود قولها غاضبًا «نبقى معًا! أتظنين أن عائلة هندريري ستعود إلى العيش هنا؟ أترضين أن ترحل أمك إلى جحر غرير، على مبعدة حقلين في العراء من غير تمديدات للماء الساخن؟»

صرخت هوملي بصوت قوي جهوري جعلهما يلتفتان إليها «أبدًا!»

وتابع پود كلامه «أو أترضين أن تمشي أمك لقطع حقلين وحديقة، حقلين مليئين بالغربان والأبقار والخيول وغيرها لتشرب كوبًا من الشاي مع الخالة لوپي التي لم تحبها كثيرًا على أي حال؟ ولكن انتظري»، قال عندما حاولت أرييتي أن تتكلم، «ليس هذا هو

المهم، كلما أطلنا في هذا الكلام ما وصلنا إلى نتيجة. المهم»، قال وهو يميل إلى الأمام ويتكلم بجدٍّ كبير، «إن الولد يعرف أين نسكن!»

«أوه كلا. لم أخبره بهذا قط. أنا...»

قاطعها پود «أخبرته عن انفجار أنبوب المطبخ، وأخبرته بأن المياه جرفت كل متاعنا إلى ذلك المنفذ الشبكي». واعتدل في جلسته وهو ينظر إليها غاضبًا وقال «ليس بحاجة إلى التفكير في الأمر كثيرًا». صمتت أرييتي وعقب پود «هذا أمر لم يحدث من قبل، قط، في كل تاريخ المقترضين. صحيح أن المقترضين «شوهدوا»، وأُمسك بعضهم ربما، ولكن لا أحد من البشور عرف أين يسكن المقترضون. إننا في خطر محدق يا أرييتي، وأنت السبب في هذا، وهذه حقيقة».

نشجت هوملي وقالت «آه يا پود، لا تثر خوف الصغيرة!»

فرد پود مترفقًا «كلا يا هوملي. يا طفلتي الكبيرة المسكينة! لا أود إثارة خوف أحد، لكن الأمر خطير. لنقل إني أخبرتك أن تحزمي متاعنا الليلة، كل حاجياتنا، فأين ستذهبين؟»

بكت هوملي «ليس إلى آل هندريري، ليس إلى هناك يا پود! لن أحتمل تقاسم المطبخ مع لوپي...»

وافقها پود «كلا، لن نذهب إلى آل هندريري. ألا تدركين السبب؟ الولد يعرف ذلك المكان أيضًا!»

صاحت هوملي في فزع حقيقي «أوه!»

«أجل، كلبان ذكيان من نوع الترير أو نمس حسن التدريب، وستكون هذه نهاية تلك العائلة».

قالت هوملي وبدأت ترتجف «أوه يا پود...» كان خيال العيش في جحر غرير كثيرًا عليها، ولكن ألَّا يتسنى لهم أن يعيشوا في هذا الجحر أدهى وأمر. قالت «وأتجرأ على القول إني عشت حياة هانئة، لأننا عشنا بعيدين تمامًا...»

قال پود وهو يلتفت إلى أرييتي «لا جدوى من التفكير في الأمر الآن. ماذا يقول خالك هندريري في رسالته؟»

«أجل، أين الرسالة؟»

قالت أرييتي وهي تمد الورقة «ليس فيها الكثير، يقول «أخبري خالتك لوپي بأن تعود إلى البيت»».

قالت هوملي محتدة وهي تنظر إلى الرسالة مقلوبة «ماذا؟ تعود إلى البيت؟ وما معنى ذلك؟»

قال پود «يعني أن لوپي خرجت كي تأتي إلى هنا ولم تصل قط».

رددت هوملي «تأتي إلى هنا؟ ولكن متى؟»

«وكيف لي أن أعرف؟»

«لا يقول متى».

«ولكن، ربما مرت أسابيع!»

«ربما. مر وقت طويل فطلب منها العودة».

«أوه، يا للأطفال الصغار المساكين!»

«إنهم كبار الآن».

«لا بد أن مكروهًا حلَّ بها».

«نعم. أتدركين ما أعنيه يا أريبيتي، عن تلك الحقول؟»

قالت هوملي بعينين مليئتين دمعًا «أوه يا پود. لا أحسب أحدًا منا سيرى المسكينة لوبي مجددًا!»

«ما كنا لنفعل على أي حال».

«أنا خائفة يا پود. كل شيء يحدث في وقت واحد. ماذا سنفعل؟»

«لا شيء نفعله الليلة، قطعًا، إلا أن نتناول عشاءنا ونخلد إلى الراحة»، ونهض. انتحبت هوملي فجأة «أوه يا أريبيتي، أيتها الفتاة المشاغبة الشريرة! كيف ذهبت وبدأت كل هذا؟ كيف ذهبت وتكلمت مع بشوري؟ لو...»

«لقد «شوهدت»، وما استطعت تجنب أن «أشاهَد». «شوهد» بابا. لا أظن الأمر فظيعًا بقدر ما تحاولان تصويره. لا أظن البشور على هذا السوء...»

قال پود «منهم الصالح ومنهم الطالح. منهم الصادق ومنهم الماكر، تتغير طباعهم وفق ما يقتضيه الموقف. ولو كان للحيوانات أن تتكلم لقالت الشيء نفسه. ابتعدي عن دربهم، هذا ما قيل لي دائمًا. مهما وعدوك، فلا أحد أصابه خير من بشوري».

# الفصل الخامس عشر

بينما رقدت أريبتي ممددة ساكنة تحت سقفها المصنوع من صندوق السيجار تلك الليلة، تحادث پود وهوملي ساعات، فتحادثا في غرفة الجلوس وفي المطبخ، وفي وقت متأخر كثيرًا سمعتهما يتحادثان في غرفتهما. سمعت فتح الجوارير وإغلاقها وصرير الأبواب وسحب الصناديق من تحت السرير. تساءلت ماذا تراهما يفعلان؟ وماذا سيحدث تاليًا؟ رقدت شديدة الهدوء في فراشها الناعم الصغير وحولها ما تألفه من حاجياتها: منظر لميناء ريو على طابع بريدي، والخنزير الفضي الواقع من إسوارة، وخاتمها الفيروزي الذي تضعه تاجًا أحيانًا حين تود أن تمرح، والأغلى من هذا كله السيدات السابحات حاملات آلات الترومبيت ينفخن فيها فوق مدينتهن الهادئة. وأدركت فجأة وهي راقدة ممددة ساكنة في فراشها أنها لا تريد أن تفقد هذه الأشياء، بل أرادت إلى جانبها الأشياء الأخرى في مزيج من المغامرة والأمان، هذا ما أرادته. وعرفت (من الخبط والهمس) أن هذا ما لا يمكن للمرء فعله.

ولما حدث هذا، كانت هوملي تركض؛ تفتح الجوارير وتغلقها غير قادرة على أن تهدأ. وانتهى بها الأمر إلى أن تعتزم تعقيص شعرها، وقد أوى پود إلى الفراش سلفًا، فقال لها محتجًّا برِمًا، مستلقيًا في قميص نومه «اهدئي يا هوملي، لا حاجة إلى كل هذا. من سيراك؟»

قالت هوملي وهي تبحث في جارور عن شرائط التعقيص حانقة «هذا هو السبب. لا يعرف المرء أبدًا في أوقات كهذه من سيقابل، ولا أود أن أُباغت وشعري هكذا!»، وقلبت الجارور وهي ترفع محتوياته.

أخلدت إلى الفراش في نهاية المطاف ونهايات شعرها مدببة، كأنها دمية خِرَقٍ سوداء بهت لونها، وانقلب پود متنهدًا وأغمض عينيه.

رقدت هوملي وقتًا طويلًا تحدق إلى القنديل، كان غطاء فضيًّا لقارورة عطر فيه فتيل صغير سابح. ولسبب ما لم تجد في نفسها رغبة في النفخ عليه. في المطبخ الأعلى حركة، والوقت متأخر على هذه الحركة -يجب أن يكون أهل البيت نيامًا- وضغطت شرائط التعقيص المنتفخة على عنقها ضغطًا مزعجًا. وحملقت -كما فعلت أرييتي- إلى الغرفة الأليفة (التي أدركت أنها مكتظة بالحقائب والصناديق والخزائن المؤقتة) وقالت لنفسها: ثم ماذا؟ ربما لن يحدث شيء، ربما كانت الصغيرة محقة، ونحن نبالغ كثيرًا في خوفنا من أجل لا شيء، هذا الولد، بعدما يقال ويفعل كل شيء، ليس إلا

ضيفًا، ولعله سيذهب مجددًا قريبًا جدًّا، وهذه نهاية الأمر. هذا ما قالته لنفسها والنعاس يغالبها.

لا بد أنها نامت بعد ذلك (كما تبين لها لاحقًا) لأنها كانت تعبر غدير پاركن؛ الوقت ليل والريح تعصف والحقل شديد الانحدار، كانت تتسلقه صعودًا، بمحاذاة الثلم قرب أنبوب الغاز، تنزلق وتسقط في العشب الرطيب. وتراءى لهوملي أن الأشجار تخبط وترتطم، وأغصانها تلوح وتتمايل بقوة أمام السماء. ثم (كما أخبرتهما بعد أسابيع عدة) سمعت صوت خشب ينقصف...

واستيقظت هوملي، ورأت الغرفة وخفق نور القنديل من جديد، لكنها عرفت في الحال أن في الغرفة شيئًا مختلفًا؛ ففيها تيار هوائي غريب وفمها جاف تملؤه حبيبات الرمل. فنظرت إلى السقف ونادت زاعقة «پود!» وهي تمسك بكتفه.

انقلب پود واعتدل في فراشه، ونظر كلاهما إلى السقف، كان كله مائلًا في زاوية وقد انخلع جانب منه من الحائط -هذا سبب التيار الهوائي- وفي الغرفة في الأسفل، على مبعدة إنش من رجل السرير برز شيء غريب؛ قضيب ضخم من الفولاذ الرمادي ذو حافة مسطحة حادة.

قال پود «إنه مفك».

حدقا إليه مذهولين غير قادرين على الحركة، وهدأ كل شيء في لحظة. وتراجع الشيء الضخم ببطء إلى الأعلى حتى بات طرفه

الحاد مقابل سقفهما وسمعت هوملي كشطًا على الأرضية في الأعلى وشهقة بشرية، فصاحت هوملي «آه يا ركبتيَّ، آه يا شعوري»، عندما انخلع سقفهما كاملًا بمفك ربط لولبي، ووقع محدثًا دويًّا في مكان ما بعيد عن أنظارهما.

صرخت هوملي عندئذ، لكنها صرخة حقيقية هذه المرة، عالية وحادة وعنيفة، وكاد صراخها يهدأ، وعيناها لا تزالان مرفوعتين، بشيء من الاهتمام إلى فراغ خاوٍ منير. أدركت وجود سقف آخر بعيدًا فوقهما، أعلى من السماء كما خيل إليها، يتدلى منه لحم خنزير وخيطان من البصل. وقفت أرييتي بالباب، خائفة راجفة تمسك بمنامتها، وضرب پود ظهر هوملي قائلًا «اصمتي، هذا يكفي»، وفجأة هدأت هوملي.

ظهر وجه كبير بينهما وبين ذلك السقف البعيد. ولوح فوقهما مبتسمًا رهيبًا، فخيم الصمت وهبت هوملي واقفة فاغرة فاها. فسأل الصوت المدهوش «أهذه أمك؟»، وهمست أرييتي من الباب قائلة «نعم».

إنه الولد.

نهض پود عن فراشه ووقف إلى جانبه يرتعش في قميص النوم وقال لهوملي «تعالي، لا يمكنك البقاء هناك».

لكن هوملي مكثت، وقد لبست ثوب النوم المرقع في ظهره ولا شيء سيزحزحها. كان الغضب البطيء يعتمل في صدر هوملي، لقد

بوغتت وهي تضع شرائط التعقيص، ورفع پود يده إليها وتذكرت في صخب حياتها ولمرة في حياتها، أنها تركت صحون العشاء حتى الصباح، وستكون هناك على طاولة المطبخ كي يراها العالم كله!

نظرت إلى الولد شزرًا، إنه ليس إلا طفلًا. فقالت «أعده! أعده حالًا!»، وتطاير الشرر من عينيها واهتزت شرائطها.

فجئا لكن هوملي لم تجفل عندما اقترب منها الوجه الكبير متأنيًا. رأت شفته السفلى زهرية وممتلئة -كأنه تجسيم ضخم لشفة أرييتي- ورأتها ترتجف قليلًا، فقال «لكني جلبت شيئًا لكم».

لم تتغير هيئة هوملي، ونادت أرييتي من مكانها عند الباب «ماذا جلبت؟»

مد الولد يده خلفه وبحذر شديد رفع شيئًا خشبيًّا فوق رؤوسهم، حريصًا على أن يبقيه مستقيمًا. قال وقد أنزل الشيء ببطء إلى حفرتهم، مخرجًا لسانه وأنفاسه متسارعة «هذا». كانت خزانة الدمية بكامل أطباقها. كان لها جاروران وصوان في الأسفل، وعدّل مكانها عند رجل سرير هوملي. ركضت أرييتي لتراها على نحو أحسن.

فصاحت في حبور «أوه، انظري يا أماه!»

ألقت هوملي نظرة على الخزانة -كانت من خشب البلوط الداكن والأطباق ملونة تلوينًا يدويًّا- ثم أشاحت بنظرها وقالت ببرود «أجل، إنها شديدة الجمال».

خيم صمت قصير لم يعرف أحد منهم كيف يكسره.

قال الولد في النهاية «الصوان ينفتح فعلًا»، وهبطت اليد الكبيرة بينهم، تفوح منها رائحة صابون الاستحمام. التصقت أريتي بالجدار وقال پود متوترًا «هيا الآن!»

قالت هوملي بعد دقيقة موافقة «نعم، أرى أنه ينفتح».

أخذ پود نفسًا طويلًا، وزفر ارتياحًا عندما تراجعت اليد.

قال مسترضيًا «هيا يا هوملي، لطالما أردت شيئًا كهذا!»

قالت هوملي ولم تزل منتصبة الظهر في جلستها ويداها متشابكتان في حجرها «أجل. شكرًا جزيلًا لك»، وأردفت في برود «هلَّا أرجعت السقف من فضلك؟»

قال الولد متوسلًا «انتظري لحظة». ومد يده خلفه مجدَّدًا وهبطت اليد مرة ثانية وهناك قرب الخزانة، في مكان شديد الضيق وضعت كرسي دمية صغيرًا جدًّا، كان كرسيًّا على الطراز الڤكتوري منجدًا بالمخمل الأحمر. فعلقت أريتي ثانية «أوه!»، وقال پود خجلًا «إنه مناسب لي تمامًا».

استعطفه الولد وقال «جربه». ونظر إليه پود نظرة قلقة، وقالت أريتي «هيا امضِ قُدُمًا!»، فجلس پود بقميصه الليلي وقدماه الحافيتان تظهران وقال بعد هنيهة «هذا جميل».

قالت أريتي «سنأخذه إلى غرفة الجلوس قرب المدفأة. سيبدو جميلًا على ورق التنشيف الأحمر!»

قال الولد «لنجرب ذلك»، ونزلت اليد من جديد. هبَّ پود واقفًا في الوقت المناسب لتثبيت الخزانة عندما دار الكرسي المخملي الأحمر فوق رأسه، ووضعه تخمينًا في الغرفة المجاورة. فركضت أرييتي خارجة من الباب وفي الممر لترى، ونادت والديها وقالت «أوه، تعالا وشاهدا. إنه جميل!»

لكن پود لم يتحرك، كان الولد يميل فوقهما، وأنفاسه ثقيلة وشاهدا الأزرار الوسطى لقميصه الليلي. كأنه كان يتفحص الغرفة البعيدة.

سأل «ماذا تخبئون في علبة الخردل؟»

قال صوت أرييتي «الفحم، وقد ساعدت في اقتراض هذه السجادة الجديدة. هذه الساعة التي أخبرتك عنها، والصور...»

«سأجلب لك طوابع بريدية أجمل من هذه. لديَّ بعض الطوابع الاحتفالية وعليها صور لتاج محل».

نادى صوت أرييتي ثانية «انظر هذه كتبي...»

وأخذ پود يد هوملي، فتمسكت به عندما نزلت اليد الكبيرة من جديد في اتجاه أرييتي «هدوء. لا تتحركي...» كان الولد يتلمس الكتب.

سألها «ما عناوينها»، ورددت أرييتي على مسامعه العناوين.

همست هوملي «سأصرخ يا پود».

«لا. لا يجدر بك. ليس ثانية».

«أشعر أن الصرخة قادمة».

ساور القلق پود فقال «احبسي نفسك وعدي حتى العشرة».

كان الولد يقول لأرييتي «لماذا لا تستطيعين أن تقرئي لي هذه؟»

«بل أستطيع، لكني أفضّل قراءة شيء جديد».

فتذمر الولد «لكنك لم تأتي».

«أعرف لكني سأفعل».

همست هوملي «هل سمعت يا پود؟ هل سمعت ما قالته؟»

«نعم، نعم، الزمي الهدوء».

عرضت عليه أرييتي قائلة «هل تود رؤية المخازن؟» فضربت هوملي يدًا على فمها كأنها تكتم صرخة.

رفع پود نظره إلى الولد وناداه محاولًا جذب انتباهه «يا هذا». نظر إليه الولد فتوسل إليه پود محاولًا إظهار الجد والعقل «أعد السقف الآن. إننا نشعر بالبرد».

وافق الولد، وبدا عليه التردد، فمد يده من فوقهم ليأخذ اللوح الذي يشكل سقفهم، وسأل «هل أدقه بالمسامير؟» وشاهدوه يرفع المطرقة التي تمايلت فوقهم منذرة بخطر شديد.

قال پود مستاء «دقّنا بالمسامير طبعًا».

«أعني عندي بعض الأشياء في الطابق العلوي...»

تردد پود فلكزته هوملي وقالت همسًا «اسأله ماذا لديه؟»

«ماذا لديك؟»

«أشياء من بيت الدمية القديم الموضوع على الرف العلوي للخزانة القريبة من المدفأة في حجرة الدرس».

«لم أرَ بيت دمية قديم قط».

«إنه في الخزانة، قريبًا من السقف فلن تراه، عليك أن تتسلق الرفوف الدنيا لتصل إليه».

سألت أرييتي من غرفة الجلوس «وماذا في بيت الدمية؟»

«كل شيء. بسط وسجاد وأَسرَّة ذات مراتب، وعصفور في قفص -ليس حقيقيًّا قطعًا- وقدور للطهي وطاولات وخمسة كراسي مذهبة وأصيص فيه نخلة، وطبق من الفطائر الجصية وفخذ ضأن مزيف...»

مالت هوملي على پود وقالت له «قل له أن يدقنا قليلًا»، فنظر پود إليها وهزت رأسها بنشاط وهي تشبك يديها.

استدار پود إلى الولد وقال «حسنًا. دُقَّ المسامير ولكن لا تحكمها، إن فهمت ما أعنيه. دُقَّ واحدًا أو اثنين هنا وهناك...»

# الفصل السادس عشر

ثم بدأت مرحلة غريبة من حياتهم؛ اقتراض يتجاوز كل ما حلموا باقتراضه، كعصر ذهبي. كانت الأرضية تُخلع كل ليلة وتظهر الكنوز؛ من قبيل سجادة حقيقية لغرفة الجلوس وسطل صغير للفحم، وأريكة قاسية صغيرة ذات مخدات من الدمقس وسرير زوجي له وسادة مدورة وسرير مماثل له مرتبة مخططة، ولوحات مؤطرة بدلًا من الطوابع وفرن لا يعمل لكنه «جميل» في المطبخ، وطاولات بيضوية ومربعة ومكتب صغير له جارور واحد، وصوانا ثياب من شجر القيقب (أحدهما له مرآة) وطاولة كتابة ذات أرجل منقوشة. لم تعتَد هوملي على اقتلاع السقف فحسب بل اقترحت على پود أن يركّب مفصّلات للوح وأوضحت قائلة «إن دق المسامير هو ما لا يعجبني، فبه يتساقط التراب».

عندما جلب لهم الولد بيانو فاخرًا توسلت هوملي إلى پود ليبني لها غرفة استقبال وقالت «إلى جوار غرفة الجلوس، وننقل المخازن إلى مكان أبعد، فنحصل على الكراسي المذهبة التي يتكلم

عنها والنخلة في الأصيص...»، غير أن پود ضجر من نقل الأثاث، وتطلع إلى أماسي هادئة يغفو فيها أخيرًا إلى جانب النار على كرسيه المخملي الجديد. فكلما وضع خزانة الأدراج في مكان ما، جاءته هوملي تدخل وتخرج من الباب -«ليتحقق الأثر المطلوب»- وجعلته «يجرب» مكانًا آخر. وكل مساء في موعد نومه، يطير السقف ويصل مزيد من المتاع. لكن هوملي لا تعرف الكلل، لامعة العينين متوردة الوجنتين بعد يوم طويل من الدفع والسحب، ولا تترك شيئًا حتى الصباح. فتتوسل إليه قائلة «لنجرب فقط»، وهي ترفع طرفًا من الخوان الكبير، ليرفع پود الطرف الآخر «لن يستغرق الأمر إلا دقيقة!» لكن پود يعرف حق المعرفة على أرض الواقع أن الأمر يستغرق ساعات عديدة قبل أن يخلدا إلى الفراش في النهاية مشعثين منهكين. بل تقفز هوملي من السرير أحيانًا «لتلقي نظرة أخيرة».

ومقابل كل هذه الكنوز تقرأ أريتي للولد عصر كل يوم في العشب الطويل وراء شجرة الكرز، فيستلقي على ظهره وتقف هي إلى جوار كتفه وتخبره متى يقلب الصفحة. كانت أيامًا سعيدة يتذكرها المرء لاحقًا، والسماء الزرقاء من وراء أغصان الكرز، والعشب يتمايل بهدوء، وأذن الولد الكبيرة مصغية قربها. باتت تعرف تلك الأذن حق المعرفة، بطيّاتها وظلالها ولونيها الذهبي والزهري تحت ضوء الشمس. وإذ أصبحت أكثر جرأة، كانت تتكئ على كتفه أحيانًا. أما هو فيكون هادئًا أثناء قراءتها وشاكرًا لها دائمًا. كم عالمًا استكشفاه معًا، عوالم غريبة على أريتي، فتعلمت الكثير وبعض مما تعلمته

صعبٌ تقبّله. فقد أدركت أن الأرض التي يعيشون عليها وتلتف في الفضاء لا تدور من أجل الناس الصغار بحسب قناعتها، «ولا من أجل الكبار» كما ذكّرت الولد حينما لاحت لها ابتسامته الخفية.

يأتي يود في المساء البارد باحثًا عنها -متعبًا ومشعثًا ومغبرًا- ليأخذها لشرب الشاي. وفي البيت تجد هوملي المتحمسة ومباهج جديدة تستكشفها، فتقول لها هوملي «أغمضي عينيك! افتحيهما الآن!» وفي حلم من الفرح ترى أرييتي بيتها قد تغير، إذ وجدت كل صنوف المفاجآت، بل وجدت ذات يوم ستائر مخرمة على المنفذ الشبكي مربوطة بخيط زهري.

ولم ينغِّص فرحتهم إلا عدم وجود أحد يرى البيت، فلا زوار، ولا مارين عابرين، ولا صيحات إعجاب ونظرات حسد! كم تمنت هوملي قدوم أحد من آل أوڤرمانتل أو آل هارپسكورد، بل إن واحدًا من آل رين بارِل أفضل من لا أحد ألبتة. فاقترحت هوملي «اكتبي لخالك هندريري وأخبريه. احرصي على أن تكون رسالة طويلة جميلة، ولا تنسي شيئًا!» بدأت أرييتي تكتب الرسالة على ظهر واحدة من قطع التنشيف التي تخلصوا منها، لكنها تحولت إلى قائمة مملة وهي تكتب، طويلة جدًّا كأنها لائحة بيع أو جرد لبيت قبل تسليمه، وظلت تقفز لتعدّ الملاعق أو لتبحث عن الكلمات في القاموس، ثم وضعتها جانبًا بعد مدة، فلديها الكثير مما تفعله سوى هذا، الكثير من الكتب الجديدة لتقرأها، والكثير جدًّا منها الآن، وقد باتت قادرة على الكلام مع الولد.

قالت لوالديها «إنه مريض، لقد جاء إلى هنا من أجل الهدوء وهواء الريف. لكنه سيعود قريبًا إلى الهند»، وسألت هوملي المدهوشة «أتعلمين أن الليل في القطب الشمالي يدوم ستة أشهر، وأن المسافة بين القطبين أقل من المسافة بين طرفي القطر المرسوم حول خط الاستواء؟»

بلى، كانت تلك أيامًا سعيدة ولو أنهم اكتفوا بالاقتراض من بيت الدمية لظل كل شيء على ما يرام، كما قال پود بعد ذلك. لم يبدُ أن أحدًا من أهل البيت البشريين يتذكره، ولذا لم يفقدوا منه شيئًا. غير أن غرفة الاستقبال كانت مغرية، وقد قل الدخول إليها هذه الأيام، وكان الكثير من التحف الزهيدة بعيدة عن متناول پود، وفي وسع الولد أن يدير المفتاح في الأبواب الزجاجية للخزانة.

جلب لهم الكمان الفضي أولًا، ثم أتى بالقيثارة الفضية، التي بلغ طولها كتف پود ووضع لها پود أوتارًا جديدة من شعر الحصان أخذه من أريكة الغرفة الصباحية. هتفت هوملي الفرحة قائلة عندما نقرت أرييتي نغمة صغيرة ناشزة على وتر شعر الحصان «سيكون لنا مجلس موسيقي!»، ثم أردفت متحمسة وهي تشبك يديها «لو أن أباك يبدأ ببناء غرفة الاستقبال!» (أخذت تعقص شعرها كل مساء هذه الأيام، وأخذت تغير ثيابها قبل تناول العشاء إذا كان البيت مرتبًا بصورة أو بأخرى، فتلبس فستانًا من الساتان، واسعًا كالجراب لكن هوملي تسميه «إغريقيًّا»). وأوضحت لأرييتي «في وسعنا أخذ سقفك المرسوم، كما أن لدينا ما يكفي من قطع التركيب

لمدّ أرضية من الألواح». (كانت تسميه باركيه، «باركيه»، مثلما ينطقها آل هارپسكورد).

بل إن العمة الكبرى صوفي، في الأبهة المبعثرة لغرفة نومها في الطابق العلوي، كأنما أصابها حماس السعي الذي تدفق في لف ودوران في أنحاء البيت الرصين القديم. فبات پود في الآونة الأخيرة يجدها خارج فراشها عند ذهابه إلى غرفتها. ولم يذهب إلى هناك هذه الأيام بغرض الاقتراض بل طلبًا للراحة، إذ يجوز للمرء أن يقول إن الغرفة قد باتت ناديًا له؛ أي مكانه الذي يرتاده «ليبتعد عن الأشياء». أصبح پود ضجرًا من كنوزه، فلم يتخيل قط ولا في أكثر أحلامه جموحًا أن يقترض أشياء كهذه. وشعر أن هوملي يجب أن تتوقف، وقد بات بيتهم فاخرًا بلا شك، ففيه علب النشوق المطعمة بالجواهر والتحف المحلّاة بالألماس، وعلب الزينة المزركشة والدمى الخزفية الصغيرة -وكلها من خزانة غرفة الاستقبال كما يعرف- ليست ضرورية، فما نفع [تمثال] راعية بطول أرييتي أو مُطفِئة الشموع كبيرة الحجم؟ كان جالسًا عند حاجز المدفأة حيث يتسنى له تدفئة يديه على النار يراقب العمة صوفي تعرج بأناة في أرجاء الغرفة على عكازيها. لن أعجب إذا ما نزلت إلى الطابق السفلي لتتفقد هذه الأشياء، قال في نفسه واجمًا، وهو لا يكاد يسمع حكاياتها المكرورة عن الغداء الملكي على متن يخت روسي.

لم تكن العمة صوفي من تفقدتها في بادئ الأمر، بل السيدة درايڤر، التي لم تنسَ قط مأساة روزا پكهاتشت. لم يُعرف المذنب

على وجه اليقين عندئذ. بل إن كرامفيرل كان مشتبهًا فيه وقالت السيدة درايڤر «سأتدبر الأمر بمفردي من الآن فصاعدًا. لن ندخل خادمات غريبات إلى هذا البيت!» قطرة من نبيذ ماديرا هنا، وزوج جوارب قديم من هناك، ومنديل أو اثنان أو صدار أو زوج قفازات للمناسبات، -شعرت السيدة درايڤر أن هذه الأشياء مختلفة، وأن الحاجيات من حقها. وقالت لنفسها متجهمة تنظر إلى الرفوف المفرَغة إن الحليّ من خزانة غرفة الاستقبال أمر مختلف تمامًا!

وقفت هناك في اليوم المشؤوم في ضوء شمس الربيع، تحمل في يدها منفضة الغبار وقد أصبحت عيناها السوداوان الصغيرتان شقين من الغضب والمكر. شعرت أنها تعرضت للخداع، وشعرت كأنما أحدهم يحاول الإيقاع بها وقد ساوره شك في نزاهتها. ولكن من يكون؟ كرامفيرل؟ ذلك الولد؟ الرجل الذي جاء لربط الساعات؟ لقد اختفت الأشياء شيئًا فشيئًا، واحدًا تلو الآخر، وهي واثقة بأن من فعل هذا امرؤ يعرف البيت وامرؤ يتمنى مرضها. وتساءلت فجأة أيعقل أن تكون سيدة البيت؟ لقد باتت المرأة العجوز تنهض من فراشها في الآونة الأخيرة وتجول في أنحاء غرفتها. أيعقل أنها نزلت أثناء الليل، تنقر بعصاها وتتطفل وتتلصص (تذكرت السيدة درايڤر قارورة ماديرا الفارغة والكأسين المتروكتين على طاولة المطبخ أحيانًا). وخطر للسيدة درايڤر أن هذا هو ما ستثرثر عنه عندما تعود إلى الطابق العلوي بين وسائدها تراقب وتنتظر أن تبلغها السيدة درايڤر عن ضياع الأشياء؟ «أكل شيء على ما يرام في الطابق السفلي

يا درايڤر؟» هذا ما تقوله دائمًا وتنظر إلى السيدة درايڤر نظرة جانبية من عينيها الماكرتين الهرمتين. وقالت السيدة درايڤر بصوت عالٍ وهي تجذب منفضة الغبار كأنها مضرب «لن أستبعد ذلك منها! وكم ستبدو مضحكة جدًّا إن أمسكتُ بها تتزحف في غرف الطابق السفلي منتصف الليل. حسنًا يا سيدتي»، همست السيدة درايڤر عابسة «تريدين التجوال والتطفل، ستكون لعبة تلعبها كلتانا!»

# الفصل السابع عشر

كانت السيدة درايڤر مُقِلَّة في حديثها مع كرامفيرل ذلك المساء، فلم تجلس وتشرب معه كعادتها، بل تثاقلت في أرجاء المطبخ، تنظر إليه بين الحين والحين بطرفي عينيها. بدا عليها الضيق، مثلما بدا عليه، فقد كان في صمتها وعيد، شيء خفي لا يسع أحدًا تجاهله. بل إن العمة صوفي شعرت به أيضًا عندما أخذت إليها السيدة درايڤر نبيذَها، فسمعته في نقر الدورق للكأس حين وضعت الصينية وفي صوت الحلقات الخشبية عندما أسدلت الستائر، وفي صرير ألواح الأرضية الخشبية والسيدة درايڤر تذرع الغرفة وفي نقرة المزلاج عندما أغلقت الباب. تساءلت العمة صوفي في حيرة وهي تصب كأسها الأولى في هدوء بلا نهم: ماذا دهاها؟

شعر به الولد هو الآخر، من حملقة السيدة درايڤر إليه عندما جلس محدودب الظهر في حوض الاستحمام، من تمريغها الليفة بالصابون وقولها «والآن!»، وفركها له ببطء وثبات حذِر غاضب، ولم تنبس بكلمة طوال وقت الاغتسال. وعندما أخلد إلى فراشه

فتشت كل متاعه، تنظر في الخزائن وتبحث في الجوارير. وسحبت حقيبة ثيابه من أسفل صوان الثياب ووجدت خلده الحبيب الميت وركام مكعبات السكر وأفضل سكاكينها لتقشير البطاطا. ولكنها لم تتكلم أيضًا. بل ألقت بالخلد إلى سلة القمامة وأصدرت بلسانها أصواتًا حادة، ووضعت سكين البطاطا ومكعبات السكر في جيبها، ونظرت إليه لحظة قبل أن تخفف نور القنديل؛ نظرة غريبة حائرة أكثر منها مؤنبة.

نامت السيدة درايڤر فوق ملحق المطبخ، رغم أن لها غرفة خاصة في الأعلى. كما أنها لم تخلع ثيابها تلك الليلة، وضبطت المنبه على منتصف الليل ووضعته خارج الباب، حتى لا تزعجها دقات الساعة، وفكت أزرار حذائها الضيق واندست تحت الغطاء وهي تنخر قليلًا. ما «كادت» تغمض عينيها (كما قالت لكرامفيرل لاحقًا) حتى سمعت رنين المنبه الحاد يجلجل وينقر بأرجله الأربع على ألواح الأرضية الجرداء في الممر. تشقلبت السيدة درايڤر في فراشها وتعثرت في طريقها إلى الباب، وقالت للمنبه وهي تبحث عن مقبض الساعة: «إششششش! إششششش!»، وضمته إلى صدرها. وقفت هناك في قدميها المجوربتين، عند أعلى سلم ملحق المطبخ؛ تحرك شيء ما بالأسفل... أثر من ضوء. نظرت السيدة درايڤر إلى المنعطف المظلم للدرج الضيق في الأسفل. أجل، ها هو من جديد، رفيف جناح عثة! ضوء شمعة - هذا هو! شمعة متنقلة وراء الدرج ووراء ملحق المطبخ، في مكان ما من المطبخ.

نزلت السيدة درايڤر تحمل الساعة في يدها، وألواح الأرضية تصر تحت قدميها المجوربتين تلهث قليلًا من حماسها. سمعت تنهيدة في الظلام وصدى حركة، وخيل إلى السيدة درايڤر، وهي تقف على البلاط الحجري البارد لملحق المطبخ، أن هذا الصوت الذي ليس بصوتٍ لا يعني إلا أمرًا واحدًا، التأرجح الهادئ للباب العازل للصوت المؤدي إلى البهو الرئيسي. تلمست السيدة درايڤر طريقها على عجالة في المطبخ وبحثت عن أعواد الثقاب على الرف الذي يعلو الموقد، فأسقطت علبة الفلفل وكيسًا ورقيًّا من أكباش القرنفل، وعندما خفضت نظرها سريعًا رأت خيطًا من الضوء، رأته في اللحظة التي سبقت إشعالها عود الثقاب، بدا شبيهًا بخيط من اليراعات على الأرض قرب قدميها، اتخذ شكلًا متطاولًا وحدد مربعًا خشنًا. شهقت السيدة درايڤر وأشعلت القنديل فأضاءت الغرفة من حولها، ونظرت بسرعة إلى الباب العازل، وخيّل إلى عينها المذهولة أنه يهتز كأنه فتح فورًا، فاتجهت إليه وفتحته لكن الممر خالٍ وهادئ، فليس فيه أثر لظل ولا وقع أقدام بعيد. وتركت الباب من يدها فرأته يتحرك من جديد، بطيئًا نادمًا، يمسكه نابضه القوي. أجل، هذا الصوت الذي سمعته في ملحق المطبخ -التنهيدة الهامسة- كالشهيق.

تقدمت السيدة درايڤر إلى الموقد حذرة وهي تجمع أطراف تنورتها. على الأرض إلى جوار اللوح البارز شيء يميل لونه إلى الزهري. وأدركت الأمر آه ذلك اللوح هو مصدر الضوء! ترددت

السيدة درايڤر وأجالت نظرها في المطبخ؛ كل شيء عدا ذلك يبدو على حاله ومثلما تركته، فالأطباق على الخوان والقدور معلقة بالحائط، وصفّ المناشف الصغيرة معلق على نحو متماثل على الحبل فوق الموقد. تبين لها أن الشيء ذا اللون الزهري علبة سكاكر لتعطير الأنفاس على شكل قلب، علبة تعرفها حق المعرفة، من الطاولة المزججة إلى جوار المدفأة في غرفة الاستقبال. فرفعتها، كانت مطلية وذهبية ومحلاة بأحجار براقة صغيرة. فقالت «يا سلام، أنا...»، ثم أعادت العلبة إلى الأرض وهي تنحني بحركة رشيقة غاضبة مفاجئة.

وزعقت زعيقًا عاليًا طويلًا. لقد رأت شيئًا يتحرك، فيركض ويتعثر ويرتجف! وسمعت صريرًا وهذرًا وشهيقًا. كانوا أناسًا صغارًا لهم أقدام وأيدٍ... وأفواه تنفتح. هكذا بدوا... لكن هذا مستحيل قطعًا! ركضت هنا وهناك وفي كل مكان وهي تزعق «أوه! أوه! أوه!»، وتلمست كرسيًّا خلفها وارتقته فاهتز من تحتها، فصعدت من الكرسي إلى الطاولة وهي لا تزال تصرخ.

وقفت هناك، وحيدة تبكي وتشهق وتنادي طلبًا للمساعدة، وسمعت حركة عند باب ملحق المطبخ بعدما خيل إليها أنه ساعات. هذا كرامفيرل الذي أيقظه الضوء والصراخ. فناداها قائلًا «ما الأمر؟ دعيني أدخل!»، لكن السيدة درايڤر ما كانت لتنزل عن الطاولة، فصرخت «إنه جحر! إنه جحر! أحياء ولهم صرير!»

ارتمى كرامفيرل بثقله على الباب وكسر القفل، وتعثر داخلًا

المطبخ وقد أصابه شيء من الدوار، وقد دس قميص نومه في بنطاله المضلع. قال لها وعيناه متسعتان تحت شعره الأشعث «أين؟ وماذا في الجحر؟»

أشارت السيدة درايفر ولم تزل تنشج من الخوف إلى الأرضية. فتقدم كرامفيرل بمشيته الوئيدة المتأنية ونظر إلى الأسفل. رأى حفرة في الأرضية، مكتظة ومحفوفة بالأمتعة الصغيرة -بدت له دمى أطفال وسقط متاع- هذا كل شيء. فقال بعد دقيقة «ليس بالأمر الخطير. هذا فعل الولد، هذا هو الأمر»، وقلب الأشياء بقدمه فسقطت كل الحواجز «لا شيء حي هناك».

شهقت السيدة درايفر قائلة «لكني رأيتهم، أؤكد لك أنهم أناس صغار لهم أيدٍ، أو فئران تلبس ثيابًا...»

نظر كرامفيرل إلى الحفرة وردد قولها متشككًا «فئران تلبس الثياب؟»

«المئات منها، تجري وتصدر صريرًا. لقد رأيتها، أؤكد لك!»

قال كرامفيرل وقلب الأشياء للمرة الأخيرة بحذائه «لا شيء هناك الآن».

«لقد هربوا، تحت الأرضية... وداخل الجدران... المكان مليء بهم».

«ربما. ولكن إن سألتني رأيي فإني أظنه الولد... هنا يخبئ الأشياء». ولمعت عيناه وجثا على ركبته «هنا يخبئ نمسه، ولا عجب».

قالت السيدة درايڤر واليأس يملأ صوتها «اسمع! عليك أن تسمع. إنه ليس الولد وما من نمس». ومدت يدها إلى ظهر الكرسي ونزلت منه إلى الأرض على نحو أخرق، ووقفت إلى جانبه عند طرف الحفرة. وقالت وهي تشير «لهم أيدٍ ووجوه، أؤكد لك. انظر، أترى هذا؟ إنه سرير. ويخطر لي الآن أن أحدهم كان راقدًا عليه».

«يخطر لك ذلك».

وواصلت كلامها بحزم «نعم، ويخطر لي أمر آخر. أتتذكر تلك الفتاة روزا پِكهاتشت؟»

«تلك الساذجة؟»

«ساذجة أم لا، لقد رأت واحدًا منهم على رف المدفأة في صالة الاستقبال، له لحية».

«واحدًا من أي شيء؟»

نظرت إليه السيدة درايڤر غاضبة «مما كنت أقوله لك، واحدًا من هؤلاء... هؤلاء...»

«الفئران التي تلبس الثياب؟»

«ليسوا فئرانًا! ليس للفئران لِحًى».

«لكنك قلت..»

«أجل، أعرف أني قلت ذلك. لكني لا أقصد ذوي اللحى. ماذا تسميهم؟ ماذا تطلق عليهم إلا فئرانًا؟»

«لا تصرخي! ستوقظين أهل البيت».

«لن يسمعوا بسبب الباب العازل للصوت». وذهبت إلى الموقد وأخذت ملقط الفحم، وقالت «وما ضر لو سمعوا؟ نحن لم نرتكب خطأ. تنحَّ ودعني أرى الحفرة».

أخرجت السيدة درايڤر الشيء تلو الشيء من الحفرة بالملقط، وهي تشهق شهقات العجب وتصرخ صرخات الدهشة وعبارات الذهول. راكمت الأشياء في مجموعتين على الأرضية، واحدة للأشياء القيّمة والأخرى لما سمته «سقط متاع». تدلت أشياء غريبة من الملقط - «أتصدق هذا؟ هذا أحسن مناديلها المخرمة! انظر، هذا واحد آخر... وآخر! وإبرتي التي أخيط بها المراتب، كنت متأكدة من أن لديَّ واحدة، كشتباني الفضي، إذا شئت، وأحد كشتباناتها! وانظر إلى الصوف والقطن... يا إلهي! لا عجب أنني لا أجد بكرة عندما أريد واحدة. بطاطا ومكسرات... انظر إلى هذه، علبة من الكاڤيار... الكاڤيار! لا هذا كثير حقًّا. كراسي الدمى وطاولات... وانظر إلى هذا المقدار من ورق التنشيف، هكذا يختفي إذن! أوه يا إلهي الرحيم!» وصرخت فجأة وعيناها تحملقان «ما هذا؟»، ووضعت السيدة درايڤر الملقط جانبًا واقتربت من الحفرة مترددة وخائفة كأنها تخشى أن تُلدغ «إنها ساعة يد، ساعة يد زمردية، ساعتها! ولم تفطِن لضياعها!» وعلا صوتها «وهي تعمل! انظر، في وسعك التأكد من ساعة المطبخ! الثانية عشرة وخمس وعشرون دقيقة!»

جلست السيدة درايفر فجأة على كرسي قاسٍ، وعيناها تحملقان ووجهها شاحب ومترهل كأنه مفرغ. وقالت لكرامفيرل «أتعرف معنى هذا؟»

«لا».

«الشرطة، هذا معناه. هذا أمر يجب أن تعرفه الشرطة».

# الفصل الثامن عشر

مكتبة ياسمين

رقد الولد يرجف قليلًا تحت الغطاء. كان المفك تحت مرتبته. لقد سمع رنين المنبه، وسمع كلام السيدة درايقر على الدرج فهرب. ما زالت رائحة الشمعة على الطاولة المجاورة لسريره تفوح في الغرفة وشمعها دافئ. رقد منتظرًا، لكنهم لم يصعدوا الطابق العلوي. سمع بعد ساعات ساعة البهو تدق معلنة الساعة الواحدة. كل شيء هادئ في الأسفل، وانسلَّ من فراشه في النهاية وتزحَّف إلى الممر نحو بداية الدرج. هنالك جلس بعض الوقت مرتجفًا قليلًا، ينظر إلى البهو المظلم في الأسفل. لا صوت إلا دقات الساعة المنتظمة وخشخشة أو همس قد يكون صوت الريح، لكنه عرف أيضًا أنه قد يكون صوت البيت نفسه، تنهيدة الأرضيات المتعبة وتوجّع الخشب ذي العقد. كان الهدوء شديدًا فاستجمع شجاعته أخيرًا ليتحرك فتسلل نازلًا الدرج وقطع الممر إلى المطبخ. تسمّع هنيهة خلف الباب العازل للصوت، وأخيرًا فتحه برفق شديد. كان المطبخ صامتًا مليئًا بالظلام الرمادي. وتحسس الرف بحثًا عن

أعواد الثقاب وأشعل واحدًا، مثلما فعلت السيدة درايفر من قبل. رأى الحفرة الفاغرة في الأرضية والأشياء مكومة إلى جوارها، وفي وميض عود الثقاب نفسه رأى شمعة على الرف. أضاءها بلا إتقان بيدين مرتجفتين. أجل، هناك وُضعت -محتويات البيت الصغير- مبعثرة على ألواح الأرضية والملقط إلى جانبها. حملت السيدة درايفر كل شيء رأته قيّمًا وتركت «سقط المتاع». وبدت الأشياء سقط متاع حقًّا وهي متناثرة هكذا على الأرض، كرات من الصوف وبطاطا قديمة وقطع متفرقة من أثاث الدمى وعلب ثقاب وبكرات خيوط قطنية ومربعات مجعدة من ورق التنشيف...

جثا على ركبته. لقد بدا «البيت» نفسه مخجلًا، فالسواتر واقعة، والأرض الترابية مكشوفة (حفر پود الأرض ليجعل الغرف أعلى)، عيدان ثقاب ومسنّن وقشور بصل وأغطية قارورات مبعثرة... نظر الولد وهو يطرف بجفنيه ويُميل الشمعة فسال الشحم الساخن على يده. فنهض وعبر المطبخ على رؤوس أصابعه وأغلق باب ملحق المطبخ. عاد إلى الحفرة واقترب منها ونادى «أرييتي... أرييتي!» وكرر النداء بعد هنيهة. سقط شيء ساخن آخر على يده، إنها دموعه، فمسحها غاضبًا، واقترب من الحفرة أكثر ونادى مرة أخرى وهمس «پود. هوملي!»

فظهروا بهدوء شديد ولم يرهم في بادئ الأمر في ضوء الشمعة المتذبذب. وقفوا صامتين ينظرون إليه بوجوه شاحبة مذعورة في ما كان الممر خارج المخزن سابقًا.

سألهم الولد «أين كنتم؟»

تنحنح پود «في نهاية الممر، تحت الساعة».

«يجب أن أخرجكم».

«إلى أين؟»

«لا أدري. ما رأيكم بالعلية؟»

«لا فائدة. لقد سمعتهما يتكلمان، سيستدعيان الشرطة ومفتش الصحة وصائد الجرذان ويجلبان قطًّا من بلدية المدينة في لايتن بزرد».

كانوا كلهم صامتين، ونظرت الأعين الصغيرة إلى العينين الكبيرتين. قال پود «لن نكون في مأمن في أي مكان من البيت». ولم يتحرك أحد.

«ماذا عن بيت الدمية في الرف الأعلى في حجرة الدرس؟ لن يصل إليه القط».

تأوهت هوملي موافقة «نعم. بيت الدمية...»

قال پود بصوت خلو من التعبير «كلا. لا تستطيعين العيش على رف. ربما لن يصل إليه القط، ولكنك لن تستطيعي النزول أيضًا. ستكونين عالقة، ولا بد أن تحصلي على الماء».

قال الولد وهو يتلمس مجموعة «سقط المتاع» «سأجلب الماء. والأسرّة والأمتعة هنا».

«كلا. الرف ليس مكانًا جيدًا. ثم إنك سترحل قريبًا، أو هذا ما يقولونه».

توسلت إليه هوملي بصوت مبحوح هامس «آه يا پود. في بيت الدمية درَج وغرفتا نوم وغرفة طعام ومطبخ، وحمام!»

«لكنه قريب من السقف. يجب أن تأكلي وتشربي، أليس كذلك؟»

«بلى يا پود، أعرف ولكن...»

سحب پود نفسًا طويلًا وقال «لا تقولي لكن. علينا أن نرحل».

تأوهت هوملي بهدوء وأخذت أرييتي تبكي.

فقال پود بصوت متعب «لا تحزنا».

غطت أرييتي وجهها بيديها وانهمرت دموعها من بين أصابعها، ورآها الولد تتلألأ في ضوء الشمعة.

فشهقت وقالت «لست حزينة، أنا سعيدة جدًّا... سعيدة».

قال الولد لپود وهو ينظر إلى أرييتي «أتعني أنكم ستنتقلون إلى جحر الغرير؟»، وشعر هو الآخر بشيء من الحماس.

«وأين نذهب سوى إلى هناك؟»

فانتحبت هوملي وجلست على خزانة الأدراج المكسورة «يا إلهي الرحيم!»

«عليكم أن تذهبوا الليلة إلى مكان ما. عليكم أن تغادروا قبل صباح غد».

فانتحبت هوملي مجددًا «يا إلهي الرحيم!»

قال پود «إنه محق في ذلك. لن نتمكن من عبور الحقول في الظلام. إن عبورها في وضح النهار صعب، فكيف بعبورها ليلًا؟»

قالت أرييتي وقد التمع وجهها في ضوء الشمعة «أعرف». كان وجهها مضيئًا ومضطربًا ورفعت ذراعيها قليلًا كأنها ستطير، فتمايلت وتوازنت وهي تشب على رؤوس أصابعها «لنذهب إلى بيت الدمية لقضاء الليلة، وغدًا...» وأغمضت عينيها لبريق الخيال، «وغدًا سيأخذنا الولد... يأخذنا..»، ولم تقل إلى أين يأخذهم.

قالت هوملي بصوت أجوف غريب «يأخذنا؟ كيف؟»

ترنمت أرييتي قائلة «في جيوبه، أليس كذلك؟»، ثم تمايلت وتوازنت بوجه مضيء مرفوع.

«بلى، وأجلب لكم متاعكم في وقت لاحق، في سلة سمك».

«يا إلهي الرحيم!»

«سآخذ الأثاث من هذه المجموعة، أو معظمه، لن ينتبهوا إليه، وأي شيء آخر تريدونه».

قالت هوملي همسًا «شاي يكفينا مدى الحياة».

«طيب، سأحضر رطلًا من الشاي، والقهوة أيضًا إن أردت. وقدورًا للطبخ، وأعواد ثقاب. لن ينقصكم شيء».

قالت هوملي باكية «ولكن ماذا يأكلون؟ يسروعات؟»

«كلا يا هوملي. لا تكوني حمقاء. لطالما أحسنت لوپي التدبير».

«لكن لوپي ليست هناك. توت؟ هل يأكلون التوت؟ كيف يطبخون؟ في العراء؟»

«اسمعي يا هوملي. سنهتم بهذا عندما نصل إلى هناك».

«لا أستطيع إشعال النار بالأغصان، وفي الريح. وماذا لو أمطرت؟ كيف يطبخون في المطر؟»

قال پود وقد بدأ صبره ينفد «اسمعي يا هوملي»، لكنها قاطعته.

سألت الولد «أيمكنك أن تجلب لنا علب السردين لنأخذها؟ وبعض الملح؟ وبعض الشموع؟ وأعواد الثقاب؟ وهل تستطيع أن تحضر لنا السجاد من بيت الدمية؟»

«نعم، يمكنني. وسأفعل بلا شك، كل ما تريدون».

قالت هوملي «حسنًا». ما زالت تبدو مضطربة لأن بعضًا من شعرها أفلت من شرائط التعقيص. لكن الهدوء ارتسم على وجهها «كيف ستأخذنا إلى الطابق العلوي؟ إلى حجرة الدرس؟»

نظر الولد إلى قميص نومه الذي لا جيوب له وقال «سأحملكم».

«كيف؟ في يديك؟»

«نعم».

«أفضل الموت. أفضل البقاء هنا وأن يأكلني صائد الجرذان من مجلس البلدية في لايتن بزرد».

نقَّل الولد نظره في أرجاء المطبخ وبدا حائرًا وسأل عندما رأى كيس مشابك الغسيل معلقًا في مكانه المعتاد بمقبض باب ملحق المطبخ «هل أحملكم في كيس مشابك الغسيل؟»

«حسنًا. أخرج المشابك أولًا».

ودخلت كيس المشابك بشجاعة عندما وضعه على الأرض. كان ناعمًا طريًّا مصنوعًا من الخوص. صرخت هوملي عندما رفعه وتمسكت بپود وأرييتي، وشهقت عندما تأرجح الكيس قليلًا «أوه، أوه، لا أستطيع! توقف! أخرجني! أوه! أوه!» وسقطوا متشابكين في قاعه وهم يتشبثون وينزلقون.

قال پود غاضبًا «هلا هدأت يا هوملي؟»، وأمسك كاحلها بقوة. لم تكن تهدئتها أمرًا سهلًا وهو مستلقٍ على ظهره ووجهه ملتصق بصدره وإحدى ساقيه فوق رأسه وقد انتصبت مستقيمة على جانب الكيس. تسلقت أرييتي بعيدًا عنهما وهي تتعلق بعقد الخوص وأطلت من الحافة.

صاحت هوملي «أوه، لا أستطيع! لا أستطيع! أوقفه يا پود. إني أموت. أخبره أن ينزلنا».

قال پود بصبره المعتاد «أنزلنا دقيقة. لا بأس. على الأرض». ووضع الكيس على الأرض إلى جانب الحفرة من جديد.

قال الولد لهوملي حزينًا «اسمعيني، عليك أن تحاولي».

قال پود «ستحاول طبعًا. امنحها متنفسًا وأبطئ في مشيك، إن فهمت ما أقصد».

وافق الولد وقال في توتر «حسنًا. ولكن ليس لدينا وقت كثير. هيا. اقفزوا».

صاح پود بحدة وتمسمر في مكانه «اسمع!»

رأى الولد ثلاثة وجوه مرفوعة يسقط عليها الضوء، كأنها الحصى جامدة ومتحجرة في ظلام الحفرة. ثم اختفت لمحَ البصر، وكانت الألواح فارغة والحفرة جرداء. فاقترب منها ونادى في همس مضطرب «پود، هوملي! عودا!»، ثم تمسمر هو الآخر وهو منحنٍ ومتخشب فوق الحفرة. سمع صرير باب ملحق المطبخ وهو يفتح خلفه.

إنها السيدة درايڤر. وقفت هناك صامتة، وهي تلبس منامتها هذه المرة. استدار الولد ونظر إليها وقال بعد هنيهة متشككًا «أهلًا».

لم تبتسم له، لكن شيئًا في عينيها التمع، بريق لئيم ونظرة انتصار. حملت الشمعة التي أضاءت وجهها، تخططه بالظل والنور تخطيطًا غريبًا. سألته «ماذا تفعل هنا؟»

نظر إليها لكنه لم يجب.

«أجبني. وماذا تفعل بكيس المشابك؟»

ما زال ينظر إليها بغباء. وردد ما قالته ونظر إلى الكيس كأنه فوجئ لرؤيته في يده وقال «كيس المشابك؟ لا شيء».

«هل أنت من وضع الساعة في الحفرة؟»

«كلا. لقد كانت هناك من قبل».

«آه. أنت تعرف أنها كانت هناك إذن».

«لا. أعني نعم».

قالت السيدة درايڤر وهي تراقبه من كثب «أتعرف ما أنت؟ أنت غبي صغير مزعج سارق متسلل لا خير منه».

فارتجف وجهه وقال «لماذا؟»

«تعرف لماذا. أنت عابث صغير ماكر حقود نشال. هذا أنت. وهم مثلك، إنهم صغار قذرون محتالون وضيعون دنيئون زاعقون ...»

«كلا ليسوا كذلك».

«وأنت متواطئ معهم!»، وجاءت إليه وأمسكت بساعده وأنهضته «أتعرف ما مصير اللصوص؟»

«لا».

«الحبس. هذا مصير اللصوص. وهذا ما سيحدث لك!»

قال الولد وشفتاه ترتعشان «أنا لست لصًا. أنا مقترض».

«ماذا؟» وأدارته بقبضة محكمة على ساعده.

كرر قوله والدموع تملأ عينيه، وتمنى ألا تتساقط «مقترض».

«هكذا تسميهم!»(هكذا قال هو قبل وقت طويل، في يوم لقائه بأرييتي).

«هذا اسمهم. هكذا هم، مقترضون».

كررت السيدة درايڤر متعجبة «مقترضون ها؟» وضحكت قائلة «لقد اقترضوا كل ما يمكنهم اقتراضه في هذا البيت وانتهى أمرهم!»، وأخذت تسحبه نحو الباب.

تسللت الدموع من بين جفنيه وانهمرت على خديه. وتوسل إليها قائلًا «لا تؤذيهم. سأنقلهم، أعدك بذلك. وأعرف كيف أفعل هذا».

ضحكت السيدة درايڤر ثانية ودفعته بفظاظة عبر الباب العازل للصوت وقالت «سينتقلون بلا شك. لا تشغل بالك بهذا. سيعرف صائد الجرذان كيف ينقلهم، وقط كرامفيرل العجوز يعرف أيضًا، وكذلك مفتش الصحة، وفوج الإطفائية إذا دعت الحاجة. والشرطة تعرف أيضًا ولا عجب. لا داعي إلى القلق بشأن انتقالهم. ما دمنا عثرنا على الجحر»، قالت وهي تخفض صوتها في همس ماكر وهما يمران بباب العمة صوفي «فالباقي هين!»

دفعته إلى حجرة الدرس وأقفلت الباب وسمع صرير ألواح أرضية الممر تحت خطواتها وهي تبتعد مسرورة. فاندس في فراشه لأنه شعر بالبرد وبكى بحرقة تحت غطائه.

# الفصل التاسع عشر

قالت السيدة مَي وهي تضع من يدها صنارة الحياكة «وهذه هي النهاية صدقًا».

نظرت إليها كيت وشهقت قائلة «أوه، مستحيل. أوه، أرجوك، أرجوك...»

قالت السيدة مي وهي تعدّل النسيج على ركبتها «المربع الأخير. المربع المئة والخمسون. نستطيع الآن أن نخيطها كلها معًا ...»

«أوه، تقصدين اللحاف! حسبتك تقصدين القصة».

فردت السيدة مي شاردة الذهن «وهي نهاية القصة أيضًا، بصورة ما»، وبدأت تفرز المربعات.

تلعثمت كيت قائلة «لكن، لا يمكنك... أعني...»، وبدت فجأة مثلما قالوا عنها؛ حرونًا عنيدة وكل ما وُصفت به. فقالت «هذا ليس عدلًا. هذا غش. هذا...» وطفرت الدموع من عينيها وألقت

بنسيجها على الطاولة وأتبعته بالصنارة وركلت كيس الصوف الكائن إلى جوارها على السجادة.

قالت السيدة مي وقد فوجئت كثيرًا «لماذا يا كيت لماذا؟»

«لا بد أن أمرًا حدث. ماذا حدث لصائد الجرذان؟ لرجال الشرطة؟ والـ...»

«لقد حدثت أمور أخرى بلا شك. حدث الكثير، وسأقصه عليك».

«فلماذا قلت إنها النهاية؟»

قالت السيدة مي وهي لم تزل مدهوشة «لأنه لم يرهم بعدها قط».

«فكيف حدثت أمور أخرى؟»

«لأن أمورًا أخرى حدثت».

نظرت كيت غاضبة وقالت «طيب، أكملي».

بادلتها السيدة النظرة ثم قالت «القصص لا تنتهي يا كيت. بل تستمر وتستمر. لكن المرء أحيانًا يتوقف عن قصها في لحظة ما».

«ولكن ليس في هذه اللحظة».

«اسلكي في صنارتك خيطًا صوفيًّا رماديًّا هذه المرة، وسنخيط المربعات. سأبدأ من الأعلى وأنت ابدئي من الأسفل. مربع رمادي أولًا ثم زمردي ثم زهري، وهكذا...»

قالت كيت حانقة وهي تحاول سلك الخيط الصوفي المطوي في سَم الإبرة الصغير «لم تقصدي إذن أنه لم يرهم بعدها قط؟»

«بل قصدت ذلك. سأقص عليك ما حدث. لقد اضطر إلى السفر فجأة -في نهاية الأسبوع- لأن إحدى السفن كانت مسافرة إلى الهند وستتعهده إحدى الأسر أثناء سفره. وقبل سفره بثلاثة أيام ظل محبوسًا في تلكما الغرفتين».

«ثلاثة أيام!»

«أجل. وأخبرت السيدة درايڤر العمة صوفي بأنه مصاب بالزكام. لم تكن قاسية معه، لكنها عزمت على إبعاده حتى تتخلص من المقترضين».

«وفعلت؟ أعني هل جاؤوا كلهم؟ رجال الشرطة وصائد الجرذان و...؟»

«لم يأتِ مفتش الصحة. أعني أنه لم يأتِ أثناء وجود أخي هناك، كما لم يحضروا صائد الجرذان من بلدية المدينة، بل أتوا برجل من أهل الحي. وجاء الشرطي...»، وضحكت السيدة مي وأكملت «اعتادت السيدة درايڤر في هذه الأيام الثلاثة أن تبلغ أخي بما يجري في الأسفل. إنها تهوى التبرم، وأخي الذي بات بلا حول ومحبوسًا في الطابق العلوي لم يعد مباليًا. كانت تحمل إليه طعامه، وفي الصباح الأول جلبت كل أثاث الدمية على صينية الإفطار وجعلت أخي يتسلق الرفوف ويعيده إلى مكانه. عندها

أخبرته بأمر الشرطي، وقال إنها كانت تستشيط غضبًا، وحزِن عليها».

«لماذا؟»

«تبين أن الشرطي هو إيرني ابن نيللي رنكير، ولد لاحقته السيدة درايفر مرات عديدة لأنه سرق التفاح الخمري اللون من الشجرة المجاورة للبوابة. وقالت لأخي «إنه تافه قذر سارق لا خير فيه ولا قيمة له. فوجئت به يجلس في المطبخ، ممسكًا بدفتره مفعمًا بالنشاط... يقول إنه في الحادية والعشرين، وقح بقدر ما تتخيل...»»

وسألت كيت مدهوشة «وهل كان تافهًا لا خير فيه؟»

«كلا، شأنه شأن أخي. كان إيرني رنكير شابًّا مستقيمًا وسيمًا ومفخرة للشرطة. ولم يسخر من السيدة درايفر عندما قصت عليه الأمر، ولكنه نظر إليها «نظرة قديمة» كما قال كرامفيرل لاحقًا، عندما وصفت هوملي في الفراش كأنه يقول «أضيفي إليه مزيدًا من الماء»».

«تضيف الماء إلى أي شيء؟»

«نبيذ ماديرا المعتق الفاخر كما أظن. وساور العمة الكبيرة صوفي الشك نفسه، فقد استشاطت غضبًا عندما سمعت أن السيدة درايفر رأت عددًا من الأناس الصغار أما هي التي تشرب إبريقًا كاملًا فلم ترَ إلا واحدًا أو اثنين. جلب كرامفيرل نبيذ ماديرا من القبو ورص الصناديق عند الجدار في ركن من غرفة نوم العمة صوفي لتحرس النبيذ كما قالت».

«هل جلبوا قطًّا؟»

«نعم. لكن هذا لم ينجح أيضًا. كان قط كرامفيرل، قطًّا كبيرًا أصفر اللون مخططًا بالأبيض. تقول السيدة درايڤر إنه ليس في رأسه سوى فكرتين: أن يخرج من البيت أو أن يدخل حجرة المؤن. وكانت تقول وهي تضع فطيرة السمك غداء لأخي «تحدثني عن المقترضين. ذلك القط مقترض، إن جاز القول، إذ اقترض السمكة، ونصف وعاء من صلصة البيض!» لكن القط لم يُطِل المكوث. فأول شيء فعلته كلاب الترير صائدة الجرذان أن لاحقت القط وأخرجته من البيت. ودارت بينهم مناوشات فظيعة كما قال أخي، وطاردت الكلابُ القط في كل مكان، في الطابق العلوي والطابق السفلي، وداخل الغرف وخارجها، وهي تنبح بأعلى صوتها. وآخر مرة رأى أخي فيها القط وهو يجري في الأيكة ويقطع الحقول وكلاب الترير تركض خلفه».

«هل أمسكت به؟»

«لا. كان القط موجودًا عندما ذهبت إلى هناك بعد عام. كان كالحًا قليلًا لكنه في أتم الصحة».

«حدثيني عن ذهابك».

«أوه، لم يطل بقائي، وبيع البيت بعدها. لم يعُد إليه أخي قط».

نظرت إليها كيت متشككة، وهي تضغط بإبرتها على منتصف شفتها السفلى «إذن لم يمسكوا بالأناس الصغار قط؟»

طرفت عينا السيدة مي وقالت «نعم. لم يمسكوا بهم ولكن...»، وترددت «ولكن ما فعلوه كان أسوأ كما قال أخي المسكين».

«ماذا فعلوا؟»

أنزلت السيدة مي أشغالها وحدقت لحظة إلى يديها العاطلتين متفكرة وقالت فجأة «لقد كرهت صائد الجرذان».

«لماذا، هل تعرفينه؟»

«الجميع يعرفونه. كان أحول العينين واسمه رتش وليم. كما أنه ذابح الخنازير -وهو يفعل أشياء أخرى- لديه بندقية وفأس ورفش ومعزقة وآلة غريبة الشكل لها منفاخ ليخرج الأشياء بالدخان. لا أدري ما نوع الدخان، أبخرة سامة أو شيء من هذا القبيل يصنعه بنفسه من الأعشاب والمواد الكيماوية. أتذكر رائحته فقط، فقد ظلت عالقة في الحظائر أو أي مكان يذهب إليه. تخيلي شعور أخي في اليوم الثالث، يوم سفره عندما شم تلك الرائحة فجأة...

كان قد لبس ثيابه واستعد للمغادرة، وحُزمت الحقائب وأخذت إلى البهو في الطابق السفلي. وجاءت السيدة درايڤر وفتحت الباب وأخذته إلى العمة صوفي في نهاية الممر. وقف هناك متخشبًا وشاحبًا، يلبس قفازين ومعطفًا إلى جانب السرير ذي الستائر. ومازحته العمة صوفي قائلة «هل أصابك دوار البحر منذ الآن؟»، وهي تنظر إليه من فوق المرتبة الكبيرة.

قال «كلا. إنها الرائحة».

فرفعت العمة صوفي أنفها وتشممت «ما هذه الرائحة يا درايڤر؟»

أوضحت السيدة درايڤر وقد احمر وجهها «إنه صائد الجرذان يا سيدتي، في المطبخ».

قالت العمة صوفي «ماذا؟ أتخرجونهم بالدخان؟» ثم ضحكت وشهقت «أوه يا إلهي... أوه يا إلهي! ولكن العلاج سهل يا درايڤر إذا لم تكوني تحبينهم».

سألت السيدة درايڤر بغير ارتياح وقد احمر ذقنها أيضًا «وما العلاج يا سيدتي؟»

لوحت العمة صوفي بيد ذات خاتم وهي تعجز عن الكلام من الضحك، وتمكنت من القول أخيرًا وهي تنفض يدها «لا تفتحي القارورة». وسمعاها تضحك وهما ينزلان الدرج.

قالت السيدة درايڤر وقد شددت قبضتها على ذراع أخي «إنها لا تصدق أنهم موجودون. يا لها من غبية! ستغير نبرتها تمامًا، عندما أصعد بهم إليها، ممددين على قطعة نظيفة من الصحيفة...»، وجرّته بغلظة في البهو.

نُقلت الساعة وانكشفت تلبيسة الخشب خلفها، ورأى أخي في الحال أن الحفرة سدت وشُمّعت. كان الباب الأمامي مفتوحًا كالعادة ودخلت أشعة الشمس. وُضعت الحقائب إلى جانب الحصيرة القماشية، وهي تتشمس قليلًا في الدفء الذهبي. ألقت

أشجار الفاكهة خلف الأيكة بأزهارها ونوّرتها خضرة رقيقة شفافة في ضوء الشمس. قالت السيدة درايڤر وهي تنظر إلى الساعة «ما زال لديك متسع من الوقت، لن تأتي سيارة الأجرة حتى الثالثة والنصف...»

«الساعة معطلة».

استدارت السيدة درايڤر. كانت تضع قبعتها ومعطفها الأسود الفاخر، مستعدة لتأخذه إلى المحطة. فبدت غريبة وأنيقة كأنها ذاهبة إلى الكنيسة، ولا تشبه درايڤر في شيء. ارتخى فك السيدة درايڤر وثقلت وجنتاها وتهدلتا وقالت بعد أن فكرت لحظة «إنها كذلك. إنها تتحرك. ستكون على ما يرام. عندما نعود سيأتي السيد فيرث يوم الاثنين»، وسحبته من ساعده.

سألها وهو يتراجع «أين نذهب؟»

«إلى المطبخ. لدينا عشر دقائق كاملة. ألا تود رؤيتهم عند القبض عليهم؟»

«لا، لا!»، وابتعد عنها.

نظرت إليه السيدة درايڤر وهي تبتسم قليلًا وقالت «أنا أود ذلك. أحب أن أراهم عن قرب. إنه ينفخ دخانه وسيركضون هاربين. هذا ما يحدث للجرذان على أي حال. ولكنه يقول إن عليك سد كل المخارج أولًا...»، ونظرت إلى حيث نظر أخي، إلى الحفرة أسفل تلبيسة الخشب.

سألها عندئذ «كيف عثروا عليها؟»، وكانت الحفرة مسدودة وأُلصق عليها مربع مائل من الورق البني.

«وجدها وليم رتش. هذا عمله».

«في وسعهم فتح هذه».

ضحكت السيدة درايڤر بألفة هذه المرة «كلا ليس في وسعهم. ليس الآن، ليس في وسعهم! لقد غطيت بالأسمنت الصلب. هكذا. مقدار كبير منه في الداخل، ووضعت صفيحة من الحديد أمام الموقد القديم في الحمام الخارجي. رفع هو وكرامفيرل أرضية الغرفة الصباحية ليصلا إلى الحفرة، وعملا طوال يوم الثلاثاء حتى موعد الشاي. لن نرى مزيدًا من هذه الحماقات، ليس تحت الساعة. عندما نعيدها إلى مكانها، فلن يسهل نقلها. إن أردتها أن تدلك على الوقت، فليس ذلك ممكنًا. انظر إلى مكانها، حيث جرفت الأرضية؟» عندها رأى أخي للمرة الأولى والأخيرة تلك السدة المرفوعة من الحجر غير المصقول «سنسمع سيارة الأجرة من المطبخ».

لكن المطبخ كان مليئًا بالضجيج عندما سحبته لعبور الباب العازل، ولن يسمع صوت سيارة الأجرة هنا. كان كرامفيرل يردد «اثبت، اثبت، اثبت، اثبت...»، في نغمة عالية وهو يمسك كلاب صائد الجرذان الترير التي زعقت ولهثت في أطواقها. كان رجل الشرطة هناك، إيرني ابن نيللي رنكير. لقد جاء بدافع الاهتمام ووقف في الخلف بحكم عمله، يحمل في يده كوبًا من الشاي ويدفع خوذته إلى الوراء لتظهر جبهته. لكن وجهه تورد من الحماس

الصبياني، وقلّب الملعقة في شايه مرة بعد مرة. وقال للسيدة درايڤر مبتهجًا «ليس من رأى كمن سمع!»، عندما رآها تدخل. كان هناك صبي من القرية معه نمس ظل يخرج من جيبه، وظل الصبي يدفعه إلى الداخل، كما قال أخي. أما وليم رتش فقرفص على الأرض قرب الحفرة، وقد أشعل شيئًا تحت قطعة من الخيش وملأت المكانَ نتانة الاحتراق. كان ينفخ بالمنفاخ بحذر مطلق وهو ينحني عليه فرحًا متوترًا.

وقف أخي كأنه في حلم («ربما كان حلمًا» قال لي بعد ذلك، بعد ذلك بكثير، بعدما كبرنا كلنا). أجال نظره في المطبخ، ورأى من النافذة أشجار الفاكهة في نور الشمس وغصن شجرة الكرز في الأيكة، ورأى فناجين شاي فارغة على الطاولة والملاعق ملتصقة بها ومن غير صحون، ورأى متاع صائد الجرذان مستندًا إلى الحائط إلى جوار الباب العازل؛ معطف بالٍ مرقع برقع جلدية، وحزمة من مصائد الأرانب، وكيسان ورفش وبندقية ومعزقة...»

قال رتش وليم «استعد الآن»، وفي صوته علت نبرة الحماس، لكنه لم يدِر رأسه. «استعد. استعد لإطلاق الكلاب».

تركت السيدة درايڤر ذراع أخي وتقدمت نحو الحفرة. فقال صائد الجرذان دون أن يدير رأسه «تراجعي. أفسحي المكان لنا»، وتراجعت السيدة درايڤر في عصبية نحو الطاولة.

وضعت كرسيًّا إلى جانبها وكادت ترفع ركبة واحدة، وعدلت عن رأيها عندما رأت نظرة إيريني رنكير الساخرة. قال لها وهو يرفع

حاجبًا «حسنًا يا ماما. سنمنحك الأولوية عندما يحين الوقت»، ونظرت إليه السيدة درايفر نظرة غاضبة، وانتزعت الفناجين الثلاثة من الطاولة وذهبت متثاقلة تحملها غاضبة في اتجاه ملحق المطبخ. وسمعها أخي تتبرم عندما مرت بجواره «يا بُقعة لا يعرف أصلها ولا شبيه لها...»، وتحرك أخي فجأة لدى سماعه هذه الكلمات.

نظر نظرة سريعة في أرجاء المطبخ؛ الرجال مشغولون وكل الأنظار مصوبة إلى صائد الجرذان، إلا نظر صبي القرية الذي أخرج نمسه. خلع أخي قفازيه خلسة وأخذ يتراجع... رويدًا... رويدًا... نحو الباب العازل، وظل ينظر إلى الجماعة قرب الحفرة هو يتحرك برفق ويدس قفازيه في جيبه. توقف لحظة بجانب أدوات صائد الجرذان، ومد يدًا حذرة متلمسة، وأمسكت أصابعه بالمقبض الخشبي، كان ناعمًا باليًا لفرط الاستعمال، ونظر إلى الأسفل ليتأكد. أجل، إنها المعزقة كما تمنى. تراجع قليلًا ودفع الباب بكتفه على نحو لا يلحظ، فانفتح بلا صوت كعادته. لم يرفع أي من الرجال نظره، وكان صائد الجرذان يقول وهو منحنٍ على المنفاخ «اثبت. سيستغرق الأمر دقيقة لينتشر الدخان، فليس تحت الأرض فتحة للتهوية...»

انسلّ أخي من الباب الموارب وتنهد خلفه عازلًا الأصوات. خطا بضع خطوات على رؤوس أصابعه إلى ممر المطبخ المظلم ثم ركض.

وها هو البهو من جديد، غارق في أشعة الشمس وحقائبه قرب الباب. اصطدم بالساعة ودقت دقة مرتجفة عميقة وملحّة.

رفع المعزقة إلى مستوى كتفه وسدد ضربة جانبية إلى الحفرة أسفل تلبيسة الخشب. تمزق الورق وسقطت بعض كسر الجص. كان خلف الأسمنت حديد حقًّا، شيء لا يتحرك. فضرب مرة أخرى وأخرى وأخرى. فانفلقت تلبيسة الخشب فوق الحفرة وانخدشت وتساقط الورق في شرائط، لكن المعزقة لم تخترق الحفرة. لا فائدة. انزلقت يداه المتعرقتان وتزحلقت على الخشب. توقف ليلتقط أنفاسه ونظر إلى الخارج فرأى سيارة الأجرة. رآها في الشارع خلف الوشيع في الطرف البعيد من البستان، وسرعان ما ستصل شجرة التفاح الخمري إلى جانب البوابة، وسرعان ما ستنعطف إلى ممر البيت. نظر إلى الساعة، كانت تدق بانتظام، وربما بسبب ضربته. بث صوتها الراحة في نفسه وهدأ نبض قلبه العنيف. إنه في حاجة إلى الوقت، قليل بعد من الوقت. قال صائد الجرذان «لن يستغرق الأمر إلا دقيقة لينتشر الدخان... فليس تحت الأرضية فتحة تهوية...»

«فتحة التهوية»، هذه هي الكلمة، الكلمة المنقذة. خرج أخي راكضًا وهو يحمل المعزقة، وتعثر على الممر المفروش بالحصى وكاد يقع، وارتفع مقبض المعزقة وضربه ضربة قوية على صدغه. عندما وصل فتحة التهوية، وجد خيطًا رفيعًا من الدخان يدور خارج المنفذ الشبكي وتراءت له وهو يجري نحوه بين القضبان في الظلمة حركة خفيفة. وهنالك وجدهم بلا شك، كي يحصلوا على شيء من الهواء. لكنه لم يتوقف ليتأكد. سمع صرير عجلات سيارة الأجرة على الممر المحصب وصوت حوافر حصان. لم يكن بالولد الصغير

القوي جدًّا، كما أخبرتك، وكان في التاسعة من عمره (وليس في العاشرة مثلما تبجح أمام أربيتي)، لكنه فك جانبًا من المنفذ الشبكي بضربتين كبيرتين على الطوب، فسقط أحد جانبيه مائلًا قليلًا معلقًا بمسمار واحد. ثم صعد إلى الأيكة وألقى المعزقة بكل ما أوتي من قوة إلى العشب خلف شجرة الكرز. وتذكر وهو يعود متعرقًا منقطع الأنفاس نحو سيارة الأجرة أن ضياع المعزقة سيسبب متاعب لاحقًا».

# الفصل العشرون

قالت كيت «ولكن ألم يرَهم يخرجون؟»

«كلا، فقد جاءت السيدة درايڤر في عاصفة من الحنق لأنهما تأخرا على موعد القطار. ودفعته إلى سيارة الأجرة وقالت إنها تريد العودة بأقصى سرعة «لتشهد النهاية الوخيمة». هكذا كانت السيدة درايڤر».

صمتت كيت هنيهة وهي مطرقة وقالت أخيرًا «هذه هي النهاية إذن».

«نعم، بصورة ما. أو أنها البداية...»

رفعت كيت وجهًا قلقًا «ولكن... ربما لم يهربوا من المنفذ الشبكي؟ ربما أمسكوا بهم؟»

قالت السيدة مي بابتهاج «أوه، لقد هربوا أحسن الهرب».

«وأنَّى لك أن تعرفي؟»

«أعرف فقط».

«وكيف عبروا الحقول في وجود الأبقار وغيرها؟ والغربان؟»

«لقد ذهبوا مشيًا بلا شك. فعلها من قبلهم آل هندريري. في وسع المرء فعل أي شيء عندما يعقد العزم».

«المسكينة هوملي! ستكون مستاءة جدًّا».

«أجل، كانت شديدة الاستياء».

«وكيف استدلوا طريقهم؟»

«بأنابيب الغاز. في الأيكة وعبر الحقول ضرب من الثلوم. عندما حفر الرجال حفرة ووضعوا فيها أنبوبًا، لم تلتئم الأرض التي حفروها جيدًا، وبدت الأرض مختلفة».

«مسكينة هوملي، لم يكن لديها الشاي أو الأثاث أو السجاد أو أي شيء. هل تظنين أنهم أخذوا شيئًا معهم؟»

«أوه، يأخذ الناس متاعًا معهم دائمًا. بل يأخذون أغرب الأشياء أحيانًا، إن قرأت عن حطام السفن». وتكلمت متعجلة كأنها ضجرت من الموضوع «انتبهي يا صغيرتي، لا تضعي الرمادي إلى جانب الزهري. عليك فكّها».

تابعت كيت بصوت يائس وهي ترفع المقص «ولكن هوملي تكره أن تصل إلى هناك فقيرة معدمة أمام لوپي».

قالت السيدة مي بصبر «معدمة، وتذكري أن لوپي ليست

موجودة. لم تعد لوبي قط. وكانت هوملي في خير حال، ألا ترينها؟ كانت لتقول «أوه يا لهؤلاء الرجال السخفاء المساكين...» وتبكي وتربط مئزرها في الحال».

«كلهم أولاد؟»

«نعم، من آل هاربسكورد وآل كلوك. ودللوا أرييتي كثيرًا».

«ماذا كانوا يأكلون؟ هل تظنين أنهم أكلوا اليسروعات؟»

«يا إلهي يا صغيرتي. لم يفعلوا طبعًا. بل كانت لهم حياة رائعة. إن جحور الغرير تشبه القرى، مليئة بالممرات والحجرات والمخازن. ويجمعون البندق وثمار الزان والكستناء، ويجمعون الذرة التي يخزنونها ويطحنونها دقيقًا كما يفعل البشر، كانت كلها لهم، ولم يحتاجوا إلى زراعتها. لديهم عسل، وكان في وسعهم إعداد شاي البيلسان أو شاي الليمون. لديهم ثمر الورد البري والزعرور والتوت الأسود وبرقوق السياج والفراولة البرية. واصطاد الأولاد السمك في الغدير وسمك المنوة في نظرهم كحجم سمكة الأسقمري في نظرك. لديهم بيض الطيور بأعداد كبيرة، لإعداد الكسترد والكيك والعجة. إنهم يعرفون أين يبحثون عن هذه الأشياء. وكان لديهم الخضار والسلطات طبعًا. تخيلي سلطة معدّة من البراعم الغضة للزعرور البري النابت -نسميه خبزًا وجبنًا- مع الحمّيض والهندباء ورشة من الزعتر والثوم البريين. تذكري أن هوملي طاهية ماهرة. لم يسكن آل كلوك تحت المطبخ بلا سبب».

«وماذا عن الأخطار؟ بنات عرس والغربان والقاقم وغيرها من الحيوانات؟»

«صحيح، المكان خطر. الخطر في كل مكان، لكنه ليس بأشد خطرًا عليهم من خطره علينا. فهم ليس لديهم حروب. وماذا عن أوائل المستوطنين في أمريكا؟ والناس الذين يزرعون وسط أرض الطرائد الكبيرة في إفريقيا وعلى أطراف الأدغال في الهند؟ لقد تعلموا عادات الحيوانات. بل إن الأرانب تعرف متى لا يكون خروج الثعلب للصيد، فتجري قريبًا منه إذا كان شبعانَ ويسترخي في الشمس. تذكري أن هؤلاء أولاد، يتعلمون الصيد لأجل الأكل وحماية أنفسهم. ولا أحسب أرييتي وهوملي تتجولان بعيدًا في الحقول».

«ستفعل أرييتي».

«صحيح. أحسبها ستفعل».

«أكان عندهم لحم؟»

«أحيانًا. لكن المقترضين هم مقترضون، وليسوا قتلة. ولو أن قاقمًا صاد طائر حجل لاقترضوا فخذًا!»

«وإن صاد ثعلبٌ أرنبًا أخذوا فراءه؟»

«أجل لصنع البسط وغيرها».

«لنقل إنهم عند الشواء يقشرون الزعرور ويشوونه، فهل يكون طعمه كطعم البطاطا المحمرة؟»

«ربما».

«لكنهم لا يستطيعون الطبخ في جحر الغرير. أظنهم يطبخون في العراء. كيف يستدفئون في الشتاء؟»

قالت السيدة مي وهي تضع نسيجها وتميل إلى الأمام قليلًا «أتعرفين ما أظنه؟ أظنهم لم يسكنوا جحر الغرير قط. أظنهم استخدموا ممراته ومخازنه، كأنه مدخل خَلوي الشكل. ولن يعرف أحد سواهم الطريق السري في الأنفاق التي تفضي في النهاية إلى بيتهم. يحب المقترضون الممرات مثلما يحبون البوابات، ويحبون العيش بعيدًا عن أبوابهم الأمامية».

«أين يعيشون إذن؟»

«خطر لي أنبوب الغاز...»

«أوه نعم، أفهم ما ترمين إليه».

«التربة طرية ورملية هناك. أظنهم سيدخلون من جحر الغرير ويحفرون حجرة دائرية في مستوى أنبوب الغاز. ومن هذه الحجرة وحولها يبنون غرفًا صغيرة كالمقصورات. أظنهم سيثقبون أنبوب الغاز ثلاثة ثقوب، أحدها صغير جدًّا لا يكاد يُرى وسيكون هذا مضاء دائمًا. أما الثقبان الآخران فسيكون لهما مغلاقان، وكلما أرادوا إشعال الغاز سحبوا المغلاقين. وسيشعلون الثقبين الكبيرين من الموقد الصغير. وهنالك يطبخون وهذا سيمنحهم الضوء».

«أهم أذكياء إلى هذا الحد؟»

«إنهم أذكياء، أذكياء جدًّا. أذكى بكثير من أن يعيشوا قربَ أنبوب غاز ولا يستخدمونه. تذكري أنهم مقترضون».

«ألن يحتاجوا إلى فتحة للتهوية؟»

«أوه، لديهم واحدة».

«ما أدراك؟»

«لأني شممت رائحة يخنة مرة عندما كنت هناك».

قالت كيت متحمسة، وقد استدارت وجثت على مسند القدم «أوه. هذا يعني أنك ذهبت إلى هناك. هكذا تعرفين كل شيء! لقد رأيتهم!»

«قالت السيدة مي معتدلة في جلستها «كلا. لم أرهم قط. ألبتة».

«لكنك ذهبت إلى هناك. أنت تخفين شيئًا! أعرف أنك تعرفين!»

نظرت السيدة مي إلى وجه كيت المتلهف وبدت مترددة وبشيء من تأنيب الضمير اعترفت في النهاية قائلة «أجل، ذهبت إلى هناك. حسنًا سأخبرك. وقد لا يكون لهذا معنى. ذهبت للإقامة في ذلك البيت قبل أن تنتقل العمة صوفي إلى دار الرعاية. عرفت أن البيت سيعرض للبيع، فـ...»، ترددت السيدة مي وبشيء من الخجل قالت «حسنًا، أخرجت كل الأثاث من بيت الدمية ووضعته في كيس مخدة وأخذته إلى هناك. واشتريت أشياء أخرى بمصروفي، كالشاي والبن والملح والفلفل وأكباش القرنفل وعلبة كبيرة من مكعبات السكر. وأخذت مجموعة كبيرة من قطع الحرير المتبقية من

خياطة لحاف مرقع. وأخذت لهم بعضًا من حسك السمك ليصنعوا إبرًا، وكشتبانًا صغيرًا وجدته في پودنغ عيد الميلاد ومجموعة من الخردوات والكسر التي وضعتها في علبة شوكولاته..»

«لكنك لم تريهم قط!»

«نعم، لم أرهم قط. جلست ساعات مقابل الأيكة تحت وشيع الزعرور. كانت أيكة جميلة، تشابكت فيها جذور الزعرور الملتفّة وثقبتها الحفر الرملية ونبت فيها البنفسج العطري وأزهار الربيع والمنثور البري. من أعلى الأيكة ترين أميالًا عبر الحقول، ترين الغابات والأودية والحارات المتعرجة، وترين مداخن البيوت».

«ربما لم تذهبي إلى الموضع الصحيح».

«لا أظن ذلك. في جلوسي بين العشب شبه حالمة أراقب الخنافس والنمل، وجدت عفصة بلوط، كانت لامعة صقيلة يابسة وفي أحد جانبيها ثقب محفور وأعلاها شوكة...»

«إبريق الشاي!»

«أظن ذلك. بحثت في كل مكان، لكني لم أجد ريشة الفوهة. فناديت في كل الحفر، مثلما فعل أخي، ولم يجبني أحد. وعندما ذهبت إلى هناك اليوم التالي اختفى كيس المخدة».

«وكل ما بداخله؟»

«نعم. كل شيء. فتشت ياردات من الأرض حول المكان، تحسبًا أن أعثر على قطعة حرير أو حبة بن، لكني لم أجد شيئًا. ربما

أخذها عابر وذهب. لكني شممت في ذلك اليوم رائحة اليخنة». وابتسمت السيدة مي.

«وفي أي يوم وجدت يوميات أريبتي؟»

تركت السيدة مي النسيج وقالت في صوت مدهوش، ثم ابتسمت في شك وتوردت وجنتاها «ما الذي يدعوك إلى قول هذا يا كيت؟»

«خمنت ذلك. عرفت أن في الأمر سرًّا، سرًّا لن تحكيه لي. كقراءة يوميات أحدهم».

قالت السيدة مي متعجلة، لكن وجنتيها ازدادتا توردًا «لم أجد اليوميات، بل دفترًا اسمه مذكرات، دفترًا صفحاته فارغة. فيه كتبت أريبتي، ولم أجده في ذلك اليوم، بل بعد ثلاثة أسابيع، قبل مغادرتي بيوم واحد».

جلست كيت صامتة، تحدق إلى السيدة مي. ثم سحبت نفسًا طويلًا وقالت أخيرًا «هذا يفسر كل شيء. حديثك عن الحجرة تحت الأرض وغيرها».

«ليس تمامًا».

«ولمَ لا؟»

«اعتادت أريبتي أن تكتب حرف الواو كالهلال وفي وسطه جرة قلم..»

«وما معنى هذا؟»

ضحكت السيدة مي ورفعت نسيجها مجددًا وقالت «أخي يكتبه على هذا النحو أيضًا».

النهاية

telegram @yasmeenbook